د. عبد الوهاب المسيري



نـهايـة التاريـخ

دراسة في بنيـة التفكير الصـهيونـي

عبد الوهاب المسيري

تحويل وتنسيق

د/ حازم مسعود

https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

الفصل الأول : ظهور وفشل الهسكلاه حركة الاستنارة اليهودية

(١) : الهسكلاه:

يُطلق اصطلاح "الاستنارة" على هذا التيار الفلسفي الذي ساد أوربا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، والذي نادى بسيادة العقل في كل مجالات النشاط الإنساني، وتقتضي معالجتنا للمناخ الحضاري الذي نشأت فيه الصهيونية أن نعرض بشكلٍ سريعٍ للسمات الأساسية لهذا التيار.

نادت حركة الاستنارة بأن العقل وحده، الذي لا يقبل إلا البديهيات الواضحة، يجب أن يكون مرشد الإنسان وهاديه، فكلُ المعرفة الإنسانية هي نتاج الإدراك الحسي، وما الحقيقة سوى مفاهيم نجردها من جماع إدراكاتنا الحسية المختلفة بعد أن يقوم العقل بتقييمها وتمحيصها، وقد شكّل تصور "لوك" للعقل الإنساني على أنه صفحة بيضاء تسجل كل ما ينطبع عليها من أحاسيس، الأساس الفلسفي لهذا الموقف العقلاني، وقد أثّر لوك والفلسفة الليبرالية الإنجليزية والتجريبيون الروس على دعاة الاستنارة بين اليهود، وآمن العقلانيون أو المستنيرون بأن العالم تتحكم فيه قوانين وعلاقات يمكن لعقل الإنسان تفهمها والتحكم فيها، ونادوا بأن الإنسان ليس مخلوقًا صوفيًا عجيب الأطوار غير خاضع للتقنين والتقييم وإنما هو كائن يتأثر بالبيئة الاجتماعية والحضارية التي يعيش فيها، وأنه عن طريق إصلاح هذه البيئة يمكن للإنسان أن يحقق قسطًا أكيدًا من السعادة، وهم لإيمانهم بأن عقل الإنسان صفحة بيضاء، آمنوا بالمساواة بين كل الأفراد والشعوب بغض النظر عن دينهم أو عنصرهم، ونادى المستنيرون بأن يعيش الإنسان حسب ما يمليه عليه عقله وبأن يدير ظهره للخرافات.

تأثر اليهود والفكر اليهودي تأثيرًا عميقًا بحركة الاستنارة الأوربية، ولقد كان لليهود بالفعل حركتهم العقلانية الاستنارية وهي تُسمى بـ"الهاسكلاه".

وكلمة "هسكلاه" كلمة عبرية تعني "فَهْم"، ولكنها في العصر الحديث تُشير إلى الحركة الفكرية اليهودية التي بدأت أواخر القرن التاسع عشر، والتي نادت بأن يترك اليهود عزلتهم ليخلقوا قيمًا أخلاقية جديدة تحل محل قيمهم العتيقة البالية، كما دعت إلى تحكيم العقل في كل ما يمُتُ بصلة للتراث اليهودي؛ فالإيمان بالعقل يعني رفض الحُجَج الغيبية، ويعني أيضًا أن يصبح كل فرد هو الحكم الوحيد على معتقداته وقيمه، .

ونادى دعاة الـ"هسكلاه" بإدخال التعليم العلماني في المدارس اليهودية، بل طالبوا أن يرسل اليهود أولادهم لمدارس الجوييم (غير اليهود من الناس) حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية؛ مثل: الهندسة والزراعة والبناء، وقد زعزع هذا من كيان البيروقراطية الدينية التي كانت تتحكم في اليهود مبقية إياهم رازحين تحت نير الظلمات والغيبيات.

وكما بيّنّا من قبل؛ نادت حركة الاستنارة بأن الطبيعة الإنسانية في جوهرها عقلانية، وأن بني البشر بغض النظر عن مللهم ونحلهم، عندهم نفس المقدرات العقلية، ولذا لم يكن من الغريب أن ينادي المسكيليم -دعاة الهسكلاه- بأن من الممكن (بل من الواجب) أن ينفض اليهودي عن نفسه قشرته القومية المتخلفة التي تحجب وتطمس جوهره الإنساني، وأن يندمج مع شعوب الأرض؛ حتى يكون ولاؤه الأول والأخير لبلده التي ينتمي إليها، وليس إلى قوميته الدينية التي لا تستند إلى أي سندٍ عقلي موضوعي، ففي تصور المسكيليم كان على اليهودي أن يصبح يهوديًا في منزله، إنسانًا عاديًا في العالم الخارجي؛ أي أن المسكيليم فصلوا الدين اليهودي عما يُسمى بالقومية اليهودية، وأنكروا أن لمثل هذه القومية أي وجود.

وذهب المسكيليم إلى أبعد الحدود في رفضهم للشخصية اليهودية التقليدية المتخلفة؛ في خنوعها، وفي طفيليتيها، وفي غرقها في طقوس دينية لا علاقة لها بالمكان أو الزمان اللذين يعيش فيهما اليهود، بل إنه يمكن القول أن المسكيليم اتفقوا إلى حد ما مع معاديي السامية في موقفهم من اليهود التقليدين.

ويبدو أن الهسكلاه قد هزت المجتمع اليهودي في الجتو (أحياء اليهود في أوربا) من جذوره، فنمط الحياة اليهودي في العصور الوسطى، وهو النمط الوحيد الذي أَلِفَه يهود الجتو، كان ضربًا من الحياة المتكاملة التي لا ينقصها من عناصر الحياة الاجتماعية شيء، وحيث أنهم وجدوا في هذه الحياة الطمأنينة الداخلية الكاملة، فقد تركز اهتمامهم على البقاء في حالة عزلة كما يقول ماكس نورداو (١٨٤٩-١٩٢٣) الزعيم الصهيوني الألماني.(١٣٣)

قضت الاستنارة على هذا النمط من الحياة، وأصبح لليهود "بيوت جديدة" فلم يعودوا بحاجة إلى عزلتهم، أصبح لديهم الآن معارف جدد، فهم غير مجبرين على العيش مع إخوانهم في الدين (١٣٤)، قبل ظهور الاستنارة والهسكلاه كان اليهودي يعرف مكانه ووظيفته؛ أن يعيش في الجتو على هامش التاريخ أو حتى خارجه، شاهد على الأمم وضحية عنفها، وقد تقبلت معظم المجتمعات الأوربية في العصور

الوسطى اليهودي على أنه شخصية هامشية، ولكن بعد الاستنارة والهسكلاه برؤيتهما العقلانية العلمانية، بات من المستحيل تقبل هذا الوضع، خاصة وأن الدول القومية بدأت تطلب من رعاياها التخلي عن ولاءاتهم الطائفية أو العنصرية (التي تسود المجتمعات الإقطاعية) والانصهار في البوتقة القومية الجديدة.

أو كما قال أحد مفكري الثورة الفرنسية في ديسمبر ١٧٨٩: "إننا نرفض أن نمنح اليهود كأمة أي شيء، أما اليهود كأفراد فإننا نمنحهم كل شيء" لذا كان على اليهود إعادة تقييم رؤيتهم، كما كان على اليهودي أن يعيد صياغة نفسه ليواكب الروح العصرية التي اخترقت جدران الجتو.

ولعل هذا هو السبب الذي دعا المسكيليم إلى توجيه سهام نقدهم إلى الجوهر الأسطوري الذي يدور حوله التراث اليهودي، فقبل ظهور الهسكلاه كان اليهودي على يقينٍ كاملٍ أنه رغم انحطاطه المادي، ورغم الظروف التي تحيط به فهو أكثر سَمُوًا من الجوييم في الأمور الروحية؛ لأن الله اصطفاه على العالمين، بل إن الفكر اليهودي ليذهب أبعد من ذلك ويؤكد أن اضطهاد اليهود عبر التاريخ هو إحدى علامات هذا الاصطفاء، وقد أسهمت أسطورة "الشعب المختار" في تعميق عزلة اليهود عن الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها، كما أسهمت في تأكيد الفوارق بينهم وبين "الأجناس" الأخرى، .

والأسطورة تُجرِّد اليهودي من إنسانيته ومن كيانه الزمني المحسوس؛ لأنها تعلية على ما هو إنساني وتاريخي، ولذا حاول المسكيليم أن يبينوا زيف هذه الأسطورة ليستعيدوا لليهودي إنسانيته المهرقة.

وحاول المسكيليم كذلك تناسي أسطورة العودة، أو على الأقل تحويلها إلى مفهوم روحي أخلاقي، فأسطورة العودة مثل أسطورة الشعب المختار، أسطورة لا عقلانية، تعزل اليهودي عن الآخرين بأن تربطه بمكان آخر في آسيا؛ ولهذا حاول دعاة الهسكلاه أن يحولوا فكرة جبل صهيون إلى مفهوم روحي أو إلى اسم للمدينة الفاضلة التي لا وجود لها إلا كفكرة في قلب الإنسان المثالي، وأصبح الخلاص هو انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية، وليس بالضرورة نتاج العودة إلى أرض الميعاد، هذا الخلاص بمعناه الجديد سينتج عنه حتمًا انتهاء آلام "المنفى".

ويعد موسى مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦) الفيلسوف اليهودي الألماني، فيلسوف الهسكلاه بالدرجة الأولى الذي حاول أن يحطم "الجتو العقلي الداخلي" الذي أنشأه اليهود حول أنفسهم لموازنة الجتو الخارجي الذي كانوا يعيشون فيه، وقد بذل

أقصى جهده لتبيان علاقة الدين بالعقل، ورفض أن يعترف بأي جانب من اليهودية يتنافى مع العقل، بل إنه ذهب إلى حد الإيمان بأن اليهودية ليست "دينًا" مرسلًا من عند الله، بل هي مجموعة من القوانين الأخلاقية المُنزلة، وأنه عندما تحدث مع موسى في سيناء لم يذكر له أي عقائد بل ذكر له طريقة للسلوك يتبعها الأفراد في حياتهم الشخصية وقد انتقد مندلسون سيطرة الحاخامات على الديانة اليهودية واليهود، وبيَّن في كتابه (أورشليم أو انعتاق اليهود المدني ١٨٧٣) أن هناك أسسًا ثلاثة لليهودية؛ أولًا: وجود الله، ثانيًا: الإيمان بالعناية الإلهية، ثالثًا: خلود الروح، وهو -يُمثل ديكارت- تقبل هذه القيم لأنها حقائق بديهية مثل الحقائق الرياضية كما تُشكل الأساس الفلسفي لكل الأديان قاطبة، وحاول مندلسون أن يعيد تعليم إخوانه في الدين حتى يمكنهم الاندماج منع بقية الشعوب، فقام بترجمة "أسفار موسى الخمسة" إلى الألمانية ليقضي على عزلة اليهود الموضوعية والنفسية وكتب تعليقًا مستنيرًا على الكتاب المقدس، وأصدر مجلة لنشر كل ثمار الثقافة العالمية بالعبرية، وأخيرًا أنشأ مدرسة في برلين للأطفال اليهود لتعليهم الألمانية وبعض الأعمال اليدوية إلى جانب العلوم اليهودية التقليدية وحاول مندلسون أن يضمن استمرار حركة الهسكلاه، فطالب بمنح كل فرد حرية العقيدة ليُقرر كل ما يشاء حسب ما يمليه عليه ضميره وتصوره الأخلاقي، أي أنه كان يحاول أن يجعل من اليهودي فردًا له حريته ووعيه وليس مجرد وحدة في مجموعة قومية دينية تسلبه حريته وإنسانيته، وقد تركت فلسفة مندلسون أثرًا عميقًا على الفكر اليهودي، بل ويمكن اعتبار مذهب (اليهودية الإصلاحية) نتاجًا مباشرًا للهسكلاه عامة ولفكر مندلسون على وجه الخصوص، فقد حاول مؤسسوا هذا المذهب أن يصلوا إلى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر وتتخلص من أثار المطلقات اللاتاريخية التي كانت تدور في فلكها، وتتضح هذه النظرة التاريخية في موقف المفكر الإصلاحي صمويل هولدهايم (١٨٠٦-١٨٨٠) من التلمود إذ يقول: "يتكلم التلمود بأيديولوجيا العصر؛ أما أنا فأتكلم من وجهة نظر الأيديولوجيا العليا لهذا العصر؛ لذلك فأنا مُحق ولي الصلاحية لعصري".

ويمكننا القول أن أحد التيارات الأساسية في الفكر الإصلاحي هو وضع المعتقدات الدينية اليهودية في إطار تاريخي ومحاولة التمييز بين ما هو مقدس وما هو دنيوي زائل، ففكرة الوحي والنبوة تسيطر على الوجدان اليهودي عُدِّلت، ورأى الإصلاحيون أن الوحي ليس خالصًا صافيًا، بل يختلط بعناصر تاريخية زمنية،

وبذا يُصبح اليهود ملزمين بمحاولة فهم هذا الوحي وأن ينفذوا منه ما هو ممكن في لحظتهم التاريخية، وعلى هذا يصبح القانون الإلهي له.
"السلطة والحق فقط طالما كانت أوضاع الحياة التي جاء لمعالجتها مستمرة، وعندما تتغير الأوضاع يجب أن يُنسخ القانون حتى وإن كان الله صاحبه ومُشرِّعه".
بل إن هذا التيار التاريخي ليصل الذروة في قرارات مؤتمر بتسبرج الإصلاحي (١٨٨٥) الذي تقرر فيه "أن الكتاب المقدس ليس من صنع الله، بل هو وثيقة من صنع الإنسان" أي أنه نتاج وعي الإنسان التاريخي وليس مطلقًا خالصًا ينوء الإنسان بمحله، وكان هولد هايم يعتقد أيضًا أن الدين أداة ابتدعها الإنسان من أجل تطوير المجتمع البشري، وهو -كأي أداة أخرى- لا بد وأن يواكب التطور وأن يُعدّل من آونة لأخرى، وتقاليد اليهودية ولاهوتها كانا ملائمتين للماضي ولكنهما الآن قد فقدا صلتهما بالواقع ولا بد من تطويرهما، إن عقل الإنسان هو الذي يجب أن يحكم وليست الطقوس والتقاليد الدينية الساكنة.
والتيار العقلاني التاريخي النسبي في الفكر الإصلاحي هو في الواقع تعبير عن رغبة اليهودي في تقبل حدوده التاريخية المحسوس باعتباره إنسانًا عاديًا وليس فردًا شاذًا ينتمي إلى أمة من الكهنة المختارين، هذه الرغبة ذاتها أخذت شكلًا آخر في الفكر الإصلاحي، أعني محاولة استبعاد العناصر القومية الموجودة في الدين اليهودي والتي تؤكد انعزال اليهود عن الأمم الأخرى (ولا تزال هذه العقلانية التاريخية النسبية ورفض الانعزالية الدينية القومية هم السمة الأساسية للتيارات الليبرالية والثورية في الفكر اليهودي).
في ضوء هاتين الخاصيتين الأساسيتين للفكر الإصلاحي اليهودي يمكننا أن ننظر للتعديلات التي قام زعماء الحركة الإصلاحية مثل دافيد فرايد لندر (١٧٥٦-١٨٣٤) وأبراهام حايجر (١٨٣٠-١٨٧٤) وهو من أكبر مفكري الحركة الإصلاحية، بإدخالها في العبادة اليهودية وعلى بعض المفاهيم الدينية.
قام الإصلاحيون بإلغاء الصلوات التي لها طابع قومي يهودي، وجعلوا لغة الصلاة هي الألمانية لا العبرية، وأدخلوا الموسيقى والأناشيد الجماعية كما سمحوا باختلاط الجنسين في الصلوات.
وقد قام بعض الإصلاحيين ببناء بيت للعبادة أطلقوا عليه اسم "الهيكل" وكانت تلك أول مرة يُستخدم فيها هذا الاسم؛ لأنه كان لا يطلق إلا على الهيكل الموجود

في القدس؛ أي أن الإصلاحيين بتسميتهم كنيستهم هذه التسمية الجديدة كانوا يحاولون تعميق ولاء اليهودي للوطن الذي يعيش فيه.

وأعادوا دراسة الكتاب المقدس على أسس علمية ونادوا بأن اليهودية أو العقيدة الموسوية -وهي التسمية الأثيرة لديهم- يستند إلى قيمٍ أخلاقية تشابه قيم الأديان الأخرى، كما ركز بعض الإصلاحيون على الجوهر الأخلاقي للتلمود مهملين التحريات المختلفة التي يَنُصُّ عليها القانون اليهودي خاصة القوانين الخاصة بالطعام.

وعدَّل الإصلاحيون بعض الأفكار الرئيسية في الديانة اليهودية فنادى أبراهام حايجر "بحذف جميع الإشارات إلى خصوصية الشعب اليهودي من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه" أي أنه طالب بالتخلي عن فكرة الشعب المختار كلية، وهي الفكرة المسئولة عن عزلة اليهود، وقد حاول بعض الإصلاحيين الإبقاء على هذه الفكرة مع إعطائها دلالة أخلاقية جديدة؛ فجعلوا الشعب اليهودي شعبًا مختارًا له رسالة أخلاقية ليست قاصرة عليه وحده لنشرها في العالم أجمع، ويمكن لمن شاء أن يؤمن بها. (هذا على طرف النقيض من الفكرة اليهودية التقليدية التي ترى أن الاختيار لا سبب ولا محتوى أخلاقي له، بل هي مسألة صوفية يحفها الغموض أو فعل رباني لا يمكن للبشر بما في ذلك اليهود أنفسهم إدراك كنهه).

وعدَّل الإصلاحيون أيضًا من فكرة العودة والمسيح المخلِّص وجعلوهما أكثر إنسانية وأقل أسطورية وقومية، فرفض الإصلاحيون (في مؤتمر بتسبرج) فكرة العودة الشخصية للمسيح المخلِّص، وأحلوا محلها فكرة العصر المسيحاني؛ عصرٌ يحل فيه السلام والكمال، هذا العصر سيأتي من خلال التقدم العلمي والحضاري وسيؤدي إلى خلاص كل الجنس البشري وإلى انتشار العمران والصلاح في كل بقاع الأرض بالتدريج البطيء وليس بغتة وبدون سوابق أو إنذارات أو شواهد.

إن الأسطورة المطلقة تحولت إلى رؤية يمكن تحقيقها بالتدريج داخل التاريخ ومن خلال إرادة الإنسان الواعية، كما أنها أصبحت رؤية شاملة ليست قاصرة على اليهود وحدهم بل تضم كل البشر.

والإصلاحيون بتجريدهم هذه الأسطورة من قبليتها وعنصريتها ومن أبعادها اللاتاريخية جعلوا من اليسير على اليهودي الاندماج في الشعوب التي يعيش بينها؛ مما أدى إلى ضمور أسطورة العودة التي تثقل وجدان اليهودي وتجعله دائم التطلع إلى مطلق لا علاقة له بواقعه المعاش.

وتأثُّر بالفكر اليهودي الإصلاحي بالفكر المسيحي واضح، فالفكر الديني المسيحي يرى أن العهد الجديد قد أحلَّ شكلًا جديدًا من الميثاق بين الرب والإنسانية يتجاوز تخصيص العهد القديم لهذا الميثاق، كما أن العهد الجديد يرى أن المسيح هو مُخلِّص البشر أجمعين، وأن هذا الخلاص سيأخذ صورة مجتمع السلام المسيحي العالمي؛ أي أن الأفكار المسيحية الإنسانية ساعدت الإصلاحيين على تخليص التراث اليهودي من قبليته ومن لا تاريخيته، فاليهودية ولنأخذ على سبيل المثال؛ حياة ليوبنسكر (١٨٢١-١٨٩١) الطبيب الروسي والزعيم الصهيوني قضى بنسكر معظم حياته داعيًا للاندماج والتخلي عن اليهودية المتخلفة، ولكنه في آواخر حياته غيَّر موقفه وأصبح من مؤسسي الصهيونية ومن دعاة الانعزال القومي، ونفس الظاهرة اتسمت بها حياة هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) المؤسس الحقيقي للصهيونية كحركة سياسية، فهرتزل بدأ اندماجيًا وانتهى قوميًا صهيونيًا، وقد وصف بيزتز سمولنسكين (١٨٤٢-١٨٨٥) الروائي الروسي اليهودي هذا الجانب من حياة الصهاينة في كتابه المسمى (المتجول في سبيل الحياة) والكتاب يُعدُّ سيرة ذاتية روائية يسرد فيها الكتاب "مغامرات إنسان يتيم راح يطوف عبر مختلف نواحي الحياة اليهودية المعاصرة في أوربا، ثم انتهى طوافه إلى الموت في الدفاع عن شعبه خلال مذبحة روسية" (٤٣)، أي حاول أن يخرج إلى الحياة الحرة العلمانية، ولكن محاولته باءت بالفشل فعاد إلى الجتو ليموت بين أبناء جلدته أبناء شعب الله المختار، أن يموت ميتة الشهداء مثله مثل الملايين الآخرين.

ويمكن أن نضرب عشرات الأمثلة الأخرى التي تعضد وجهة نظرنا، ولكن من الأفضل أن نطرح سير المفكرين الصهاينة جانبًا وأن ننظر إلى كتاباتهم ذاتيًا، يقول بنسكر في كتابه الانعتاق الذاتي: "يجب ألا نقنع أنفسنا بأن الإنسانية وحركة التنوير سيكونان أبدًا دواء جوهريًا لشفاء من مرضه" (٩٦).

أما سمولنسكين فكان من المؤمنين بأن الهسكلاه "نظرية غريبة شاذة" وأن المسكيليم كانوا أناسًا غير حكماء لم يعرفوا الماضي ولا المستقبل، وهم لا يستوعبون معنى الحاضر" (٥٣)؛ لأنهم يطالبون اليهود بتقليد "الجوييم الأغيار" (٥٤).

عن التنوير، حسب تصوره المبتسر القاصر؛ هو الرفض الأعمى للماضي اليهودي، وهو أيضًا محاولة القضاء على كل "روابط المحبة والتضامن مع الجماعة" (٥٥) التي تربط الفرد اليهودي ببني ملته، إن الهسكلاه -حسب تصوره-

تؤدي باليهود إلى خداع النفس "بآمال كاذبة"، وإلى الحديث عن "السلام في حين أنه ليس هناك أي سلام" (٥٦).

والصورة التي يقدمها سمولنسكين صورة كاريكاتورية تنم عن عدم تفهم لطبيعة الهسكلاه الإصلاحية التدريجية وفي نهاية مقاله اقتبسنا منه يقول سمولنسكين: "كذلك أكدوا لنا بأننا بهذا "التنوير" سنستطيع تأسيس بيوت لنا حيثما تصادف وجودنا ونادوا بأنه يجب علينا أن نتخلى عن كل بارقة أمل في العودة إلى أرضنا والعيش هناك بعزة مثل سائر الشعور، ولقد رأينا أن كل هذا لم يثمر شيئًا ولم يحقق لنا الحب الذي نطلبه، لذلك نقول: أن الكلب وحده هو الذي لا يملك ولا يريد أن يملك بيتًا والإنسان المتنقل طيلة حياته والذي لا يفكر أبدًا في أن يؤسس بيتًا لأبنائه سيعتبر كالكلب" (٥٧).

أما ماكس ناردوا فهو من المؤمنين بان الهسكلاه نوعٌ من النفاق؛ لأن اليهودي ينفق طاقته في إخفاء شخصيته الحقيقية وهو يخاف أن يعرف الناس أنه يهودي وذلك من خلال شخصيته لذلك "فهو أبدًا محروم من الكشف عن حقيقة نفسه" خوفًا من أن تُعرف شخصيته الأصلية، "لذلك شُلَّت قواه من الداخل فأصبح مرائيًا من الخارج، كأي شيءٍ غير حقيقي، مضحك وكريه في نظر كل الناس ذوي المقاييس العليا (١٣٥)، ويرى بيرديشفسكي (١٨٦٥-١٩٢١) الروائي الروسي الصهيوني أن المسكيليم رجال بوجهين فهو نصف غربيين -في حياتهم اليومية وأفكارهم- ونصف يهود -في كنسهم-" (١٨٣).

وفي نفس النغمة توجد في كتابات وحياة موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥) المفكر الاجتماعي الألماني، وواضع الأساس الفلسفي للصهيونية بدأ هس حياته اشتراكيًا ثوريًا وصديقًا شخصيًا لكارل ماركس، وفي كتاباته الأولى نجده ينحو منحىً عقلانيًا متطرفًا؛ فهو يعلن في مذكراته أن "الدين اليهودي والشرع الموسوي قد ماتا" (١٩) ولكنه في روما والقدس (١٨٦٢) يعلن توبته عن ثوريته وعقلانيته قائلًا: "عدت إلى شعبي بعد عشرين سنة من الاغتراب، وهأنذا أشارك شعبي مرة أخرى في أعياد أفراحه وفي أيام أتراحه، في آماله وذكرياته" (٢١) وإذا كان مندلسون هو فيلسوف الهسكلاه، فإن هس هو فيلسوف النكسة الفلسفية التي صدرت عنها الصهيونية، فالإشراقة الإنسانية التي تطالعنا في كتابات مندلسون، والرغبة الصادقة في الانتماء للجنس البشري وللتطور التاريخي المحسوس يختفيان كلية في كتابات هس، وبدلًا من ذلك نجد نفس الإصرار القدري القديم على أنه لا مفر

من العزلة ولا مفر من دخول دائرة الوجود اليهودي، وإذا كان سمولنسكين قد سمى المستنيرين المندمجين بالكلاب، واعتبرهم نرداو منافقين، فإن هس هو الآخر أسهم في عملية السب هذه حين يقول: "أما اليهودي عديم الشرف فهو ليس ذلك النموذج القديم التقي الذي يفضل قطع لسانه على أن يتفوه بكلمة ينكر فيها قوميته، إنما هو اليهودي العصري...الذي يخجل من قوميته؛ لأن يد القدر تضغط بقوة على شعبه" (٢٤).

إن منطق هس -كما نرى- هو أن حركة الهسكلاه قد وصلت إلى نهاية المطاف، وهو لهذا السبب هاجم اليهود الإصلاحيين لتخليهم عن قوميتهم، وأيَّد اليهود الأرثوذكس لتأكيد العنصر القومي، لقد آمن فيلسوف النكسة أن لكل جنسٍ بشري معناه الروحي ومهمته في تاريخ العالم ومهمة اليهود في العالم هي تحقيق العدالة الاجتماعية في جماعة إنسانية منظمة متحدة، ولكن لا يمكن لليهود إنجاز مهمتهم التاريخية إلا كأمة ولذا يجب على اليهود أن يحصلوا على قطعة أرض تكون وطنًا لهم، وعليهم العودة إلى أرض الميعاد.

وهكذا نجد أن رؤية هس "التاريخية" تماثل إلى حد كبير الرؤية اليهودية التقليدية وهو لهذا قد أشار بكثير من الاستحسان إلى كتابات الحاخام كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤) الذي اقترح تأسيس جماعة لشراء الأراضي ولمساعدة اليهود في العالم كله على الاستيطان في فلسطين (١٣-١٩) أن كل ملامح التفكير الصهيوني وتناقضاته موجودة في كتابات هس: الإيمان بالأمة التي لها دور روحي خاص، والهروب من العقل ومن التاريخ المحسوس على عالم تسيطر عليه الأساطير والمطلقات.

والآن يحق لنا أن نتساءل، لماذا هذا الإحساس الغامر بفشل الهسكلاه؟ ولماذا هذا الارتداد عن العقلانية الإنسانية؟ مما لا مراء فيها أنه كانت هناك أسباب موضوعية جعلت من اليسير ترجمة مثل الهسكلاه إلى حقيقة أو واقع تاريخي، ونحن نورد فيما يلي بعض هذه الأسباب:

١ - كان الاندماجيون والمسكيليم عادة من الارستقراطيين أو البرجوازيين الذين كان الاندماج لا يضيرهم اقتصاديًا؛ إذ أن خبراتهم كانت من النوع المطلوب اقتصاديًا، فالأطباء والمهندسون -على سبيل المثال- يمتلكون من الخبرات ما لا يمكن لأي مجتمع مهما كانت ميوله الدينية أو الأيديولوجية الاستغناء عنه، ولكن أغلبية الجماهير اليهودية كانت تنتمي إلى طبقة البرجوازية الصغيرة، التي لم يعني

الاندماج بالنسبة لها سوى الهبوط في السلم الاجتماعي، فالمجتمع ككل لم يكن له كبير حاجة لهم ، ولذا فالحياة داخل أسوار الجتو لم تكن سيئة إلى هذا الحد بالنسبة لهم، وهذه الجماهير البرجوازية الصغيرة هي التي اعتمدت عليها الصهيونية وكل الحركات "القومية" اليهودية الأخرى، وهي الجماهير التي تحمست لإنشاء أكبر جتو في العالم: الدولة اليهودية.

٢ - رغم أن حركة انعتاق اليهود وما نشأ عنها من استعادة للحريات المسلوبة واسترداد للحقوق الضائعة، كانت قد بدأت في التحقق التدريجي، إلا أنها -شأنها شأن أي حركة تاريخية أخرى- لم تأخذ شكلًا مستقيمًا بل كانت هناك نكسات متعددة مثل مذابح عام ١٨٨١ التي أعقبت اغتيال القيصر نيقولا الثاني، قيصر روسيا.

٣ - ومما ساعد على الانتكاس الفكري في صفوف اليهود؛ ظهور القوميات الرجعية، فالقوميات التي ظهرت في فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة، نشأت نتيجة لتطور تاريخي طبيعي، وقامت البرجوازية -ذات المُثُل الليبرالية- بقيادة الثورة ضد الإقطاع، أما القوميات السلافية والألمانية فالأمر مختلف بالنسبة إليها، فهي قوميات نشأت فكرتها في مجتمعات متخلفة أوتوقراطية، ولم تكن البرجوازية هي الطبقة الوحيدة القائدة، بل إنه في بعض الأحيان كانت الأسر المالكة -تساعدها طبقات الإقطاعيين وكبار المُلاك- تجد أن من صالحها تأييد الحركات القومية ونتيجة لعدم التحدد الطبقي في القيادة؛ نجد أن معظم هذه القوميات رومانسي في رؤيته، يرتكز على أساس ميتافيزيقي أسطوري ويطرح شعارات غائمة مثل "روح الشعل" و"رسالة الأمة الخالدة" ومن سخرية الأقدار أن تكون هذه هي مزاعم اليهود بالنسبة لأنفسهم كأمة، ولذا نظرت هذه القوميات الرجعية لليهودي على أنه ليس الغريب فحسب، وبل والغريم والمنافس الذي يجب القضاء عليه (ولعلَّ هذا يفسر بشاعة اضطهاد النازيين لليهود).

٤ - نشأت الصهيونية أساسًا في روسيا وفي شرق أوربا، وهي بلاد لم تضرب الاستنارة فيها جذورًا حقيقة، وقد آثر الصهاينة تجاهل وضع اليهود الذين يعيشون في البلاد التي تسودها فيها الليبرالية لأن هذا لم يخدم غرضهم، وقد قال وايزمان (١٨٧٤- ١٩٥٢) الزعيم الصهيوني وأول رئيس لجمهورية إسرائيل: "إن الغرب بالنسبة للصهيونيين كان ينتهي عند نهر الراين، وخلف هذه الحدود كانت توجد أرض مجهولة"، ولا تزال هذه الأرض حتى يومنا هذا، أرضًا مجهولة للصهاينة، فالاستنارة لم تحدث والاندماج إن هو إلا سراب، وعلى الرغم من أنه هو الحقيقة

الأساسية في حياة اليهود في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ولذا كان هتلر بنازيته اللاعقلانية هو خير معين للصهاينة؛ لأنه أثبت لهم أن اللاعقل قد انتصر وأن بلدًا مستنيرًا نسبيًا مثل ألماني يمكن أن ينتكس في أي لحظة ليلقي باليهود في أفران الغاز.

٥ - بل إننا نجد أن يهود القوميات الليبرالية المندمجين (في أمريكا وإنجلترا وفرنسا) رغم عقلانية وضعهم الاجتماعي وإنسانيته، قد وقعوا في قبضة الفكر الصهيوني المتخلف لأسباب عدة:

١ - أدى تعاطف يهود القوميات الليبرالية مع يهود روسيا وشرق أوربا، خاصة بعد مذابح كيشينيف الشهيرة إلى إحساسهم الشديد بالذنب، وقد ترجم هذا الإحساس نفسه إلى رغبة في مساعدة اليهود الشرقيين في محنتهم، وقدمت الصهيونية نفسها على أنها العلاج الوحيد والناجح لمشاكل اليهود.

٢ - ومما زاد من التفاف يهود الغرب حول المُثُل الصهيونية المتخلفة وصول جماعات كثيرة من يهود الشرق إلى إنجلترا وفرنسا وأميركا، إذ كانت هذه الجماعات "المتخلفة" من اليهود تذكر كلا من اليهود المندمجين وإخوانهم من الجوييم بأصول اليهود المختلفة وبالأساطير والطقوس المتخلفة التي تدل على توزع ولاءاتهم، وكلما تم اندماج دفعة من المهاجرين كانت تصل دفعة أخرى، ومن ثمَّ يضطر اليهود، المندمج منهم والقادم الجديد إلى البدء من نقطة الصفر، ولذا كان الحل الصهيوني، الذي يُطالب بتحويل الهجرة إلى أرض الميعاد في آسيا بعيدًا عن أوربا، هو الحل الأمثل بالنسبة للمندمجين، وقد تنبه هرتزل إلى هذه الحقيقة في كتابه "الدولة اليهودية" حيث يقول: "إن هذا الضيق المكبوت عند اليهود "المندمجين" يظهر على شكل أعمال خيرية، فهم ينظمون جمعيات هجرة لليهود القادمين، لقد تأسست بعض هذه الجمعيات ضد اليهود المضطهدين وليس من أجلهم، فقد كان لسان حالهم يقول تخلصوا من المعوزين بأسرع ما يمكن وأرسلوهم إلى أبعد مكان ممكن"(١٠٩).

٣ - استقطبت الحركات الثورية في ألمانيا وروسيا وبولندا وغيرها من البلدان في شرق أوربا، بل وفي غربها، كثيرًا من المثقفين اليهود إلى درجة جعلت الوجود اليهودي في هذه الحركات ملحوظًا للجميع، وقد أزعج هذا القيادات اليهودية المندمجة في المجتمعات البرجوازية في الغرب، ولهذا السبب كان من المنطقي أن

تشجع هذه القيادات الحركة الصهيونية لامتصاص هؤلاء المثقفين ولتحويلهم عن الطريق الثوري إلى طريق الصهيونية القومي الغيبي.
هذه هي بعض الأسباب التي أدت إلى انتشار الصهيونية في صفوف يهود الغرب، ولكن يجب أن نلاحظ أن إيمان يهود الغرب بالصهاينة لم يكن إيمانًا كاملًا بل كان إيمانًا عمليًا جزئيًا، فهم كانوا من المؤمنين بأن الحل الصهيوني اللاعقلاني ملائم ليهود الشرق فحسب، أما بالنسبة لهم، فالحل المستنير العقلاني كان الحل الأمثل وهذه خلطة فكرية انتهازية من الدرجة الأولى تتسم بضرب لا نظير له من الشيزوفرانيا الفلسفية، ولعل هذا الجانب من الفكر الصهيوني في الغرب هو الذي دفع أحدهم لتعريف الصهيوني الغربي؛ بأنه يهودي يجمع التبرعات من يهودي آخر لإرسال يهودي ثالث لأرض الميعاد.
يمكننا القول: أن كل هذه الأسباب مجتمعة قد أسهمت دون شك في إعاقة تحقيق مُثُل الاستنارة، ولكن هناك أسبابًا ذاتية خاصة بتوقعات اليهود والصهاينة من الهسكلاه وخاصة بتصورهم لأنفسهم ولدورهم في التاريخ والمجتمع، أي أنها أسباب تتعلق باليهود في حد ذاتها وليس بوضعهم الاجتماعي، هذه الأسباب أعاقت هي الأخرى محاولة ترجمة مُثُل الهسكلاه إلى واقع وحقيقة:
١ - نعتقد أن هناك خطأً أساسيًا في طريقة طرح الصهاينة للمشكلة اليهودية وفي طريقة تقييمهم للهسكلاه، فقد بسطوا الحلول المطروحة للمشكلة اليهودية بشكل متطرف، وقرروا أنه لم يكن أما اليهود سوى الذوبان الكامل عن طريق الاندماج أو الفناء الكامل عن طريق المذابح مما جعل الحل المنطقي الوحيد؛ هو الهجرة "لبعث إسرائيل في أرض أجدادهم حيث تستطيع الأجيال القليلة القادمة أن تحيا حياة قومية عادية إلى أقصى حد" على حد قول موشيه ليلنبلوم (١٨٤٣-١٩١٠) الداعية الصهيوني الروسي، ونحن من تجربتنا التاريخية نعرف أن كل هذه الاحتمالات مجرد تصورات نظرية ومجردة، فاليهود الذين يعيشون في عالم الجوييم لم يُقدَّر لهم الذوبان الكامل ولم يكن مصيرهم الدمار الشامل، كما أن الهجرة اليهودية (من شرق أوربا) في أواخر القرن التاسع عشر لم تتجه إلى أرض الميعاد بل اتجهت إلى أوربا الغربية أو إلى العالم الجديد، ولو راقب الصهاينة حركة الواقع المحسوس -كما فعل المؤرخ اليهودي شمعون دفنوف- بدلًا من الوقوع في إسار التعميمات الغائمة لطرحوا حلولًا للمشكلة اليهودية أكثر تقدمية وعقلانية من الحل الصهيوني الغيبي.

٢ - بدأ الصهاينة في إعلان فشل الهسكلاه بعد مرور أعوام قليلة من ظهورها، وهذا دليلٌ آخر على تجريدية العقل الصهيوني، فنحن عادة لا نستخدم مصطلحات مثل "النجاح" و"الفشل" حينما نشير إلى الحركات الفكرية والظواهر الحضارية المختلفة، فالأفكار تأخذ مئات السنين لتتحول إلى واقع سياسي، وفي خلال هذه الفترة تأخذ الفكرة ألف شكل وشكل، فالواقع يغاير المثُل، والحقيقة السياسية لا يمكن أن تكون مطابقة للحقيقة الفكرية، هذا إلا إذا كنا نعيش داخل أنابيب الاختبار، أو معامل أوتوماتيكية معقمة، ولكننا -والحمد لله- لا زلنا نعيش في عالمٍ أكثر تركيبًا بل إننا إذا نظرنا إلى واقع اليهود التاريخي لوجدنا أن انعتاق اليهود في أوربا -شرقها وغربها- وفي العالم الجديد تم بسرعة "ونجاح" مذهلين، إذا ما قيس بظواهر سياسية مماثلة مثل تحرر الزنوج في أمريكا الشمالية، ولكن الصهاينة لم يتبنوا هذا النجاح التاريخي النسبي لأنهم كانوا منشغلين بترقب نجاحهم والعودة إلى أرض الميعاد والخلاص الأبدي والحياة الأزلية.

٣ - ويبدو أن الصهيوني -وهو الوريث الحقيقي لفكرة "الشعب المختار"- لا يحكم على نفسه بالطريقة التي يحكم بها على الآخرين، فالعقل اليهودي منذ بداية التاريخ، قسَّم العالم إلى "أنا" و"الأغيار" اليهودي والجوييم وما يسري على الواحد لا يسري على الآخر وبالعكس، ولذا فالقياس التاريخي السليم الذي يساعد المرء على تقبل الحدود التاريخية -إن لم تكن مستحيلة- بالنسبة للصهيوني، ولتأخذ موقف الصهاينة واليهود عامة من النازية: من المعروف للجميع أن الجيوش النازية قد ألحقت الدمار ببلاد أوربية، وأن الاتحاد السوفيتي بمفرده فقَدَ عشرات الملايين من الضحايا في حربه ضد النازية، كما فقدَ أيضًا معظم صناعاته ولكن اليهود الصهاينة يتناسون هذه الحقيقة ليركزوا على ما أُلحق بهم -وهم وحدهم- من دمار، حتى نجحوا في خلق انطباع عام لدى كل المثقفين في العالم، بل ولدى معظم الجماهير، مؤداه أن النازية كانت تَصُبُ عليهم وحدهم حمم غضبها، ولقد نجحوا في ذلك؛ لأن العناصر اليهودية تُسهم في تسيير دفة وسائل الإعلام في أوربا، ولكن الأهم من ذلك هو أن كل ضحايا النازية الآخرين قد تغلبوا على جراحهم وعادوا إلى عملية الخلق الحضاري، أما الصهيوني فلا يزال يتأمل جرحه، معتقدًا أن جرحه إن هو إلا استمرار للجرح القديم الذي لا يندمل، وإذا نظرنا إلى حالة اليهود كأقلية القرن التاسع عشر لوجدنا أنهم كانوا أسعد حظًا بكثير من غيرهم من الأقليات،

ولكن الآخرين لا علاقة لهم باليهودي ولقد اصطفاه الله على العالمين ولذا فهو الضحية الوحيدة.

٤ - كانت الجماعات اليهودية في أوربا هي أكثر القطاعات الإنسانية تخلفًا، إذ أن الجتو انغلق على نفسه مئات السنين محتفظًا بصفاته التي اتسم بها في العصور الوسطى، لقد مرَّ عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني على أوربا دون أن يتركا أي أثر على الجتو، ولذا فحينما بدأت حركة الاستنارة كانت كل أوربا مُعدَة لها، في حين أن اليهود لم يكونوا مُعدين حضاريا أو نفسيا وكما يقول نحمن سيركين (١٨٦٧-١٩٣٤) المفكر الصهيوني "الاشتراكي" أن إعلان حقوق الإنسان قد حرر اليهود بشكلٍ مفاجئ من عبودية القرون الوسطى ومنحهم المساواة السياسية والمدنية بدون أي جهد من جانبهم، لقد حقق اليهود تحررهم صدفة عن طريق انتصار مبدأ المساواة دون أن تكون لهم قوة ذاتية حقيقة تسندهم أو قوة منظمة فعّال تبدأ عملية انعتاقهم". (٢٢٠)

كان على اليهودي أن يعيد صياغة ذاتية ونفسية بل والطريقة التي يرتدي بها ملابسه ويقص شعره، كما أنه، وهو الذي يدين بولاء غامض لتلك البلاد البعيدة التي لم يرها قط في حياته -أرض الميعاد- كان عليه أن ينمي في ذاته ولاءً محددًا للبلد الذي يعيش فيه، وهذا أمرٌ لم يكن هينًا على كثير من اليهود.

٦ - كان من صالح بعض القيادات الاجتماعية والدينية داخل الجتو ذاته أنه تظل العزلة مضروبة على اليهود، حفاظًا على الجماهير اليهودية كأيدٍ عاملة رخيصة يستغلها المستثمرون اليهود تحت شعار الرابطة الدينية.

٧ - نتيجة لهذا الوضع وقعت غالبية الجماهير اليهودية في شرق أوربا في قبضة التيارات الدينية المتخلفة (الأرثوذكسية والمحافظة ومن بعدها الصهيونية) وهي تيارات قدمت رؤية منغلقة وقبلية للحياة اليهودية مستندة إلى فهم ضيق للتراث الديني اليهودي.

ولا غرو أن كثيرًا من اليهود اعتقدوا أن حركة الهسكلاه كانت تعني التخلي الكامل عن اليهودية، لأن اليهودية -حسب تصورهم- كانت غير قابلة للتطوير، وفي هذا يقول أحاد هعام (١٨٦٥-١٩٢٧) مؤسس مدرسة الصهيونية الروحية: "إن اليهودية إذا تخرج من أسوار الجتو الانعزالية تتعرض إلى خسارة كيانها الأصلي، أو على الأقل وحدتها القومية وتصبح مهدده بالانقسام إلي أكثر من نوع واحد من اليهودية".(١٥٩).

ولعلَّ هذا هو السبب في أن المسكيليم وجدوا أن من الأهون خلق قالب جديد لتابعي الهسكلاه من القيام بإصلاح طريقة الحياة اليهودية مع الإبقاء في الوقت ذاته على الصفات اليهودية "(١٤٦).

ويكرر نورداو نفس الفكرة أو النغمة في كتاباته إذ يقول: "كانت كل العادات وأنماط السلوك اليهودية تهدُف دون وعي إلى شيء واحد، الحفاظ على اليهودية، وذلك بعد الاختلاط بالجوييم من أجل الحفاظ على المجتمع اليهودي، ولتستمر في تذكير الفرد اليهودي بأنه سيفقد ويهلك إن هو تخلى عن شخصيته الفريدة، وهذا الدافع نحو الانفصال عن الغير كان منبع كل قوانين الطقوس الدينية التي كان يعتبرها اليهودي عادة بمرتبة إيمانه ذاته" (١٣٣)، ولذا لم يكن من الغريب أن يحذِّر سمولنسكين اليهودي من أي تجديد أو تطوير، إن أتباع الهسكلاه -حسب تصوره - فيه قطع "لكل جذور الحياة" بالنسبة لليهود (٥٤)، وفيه تقويض لبيت إسرائيل كليًا (٥٥)، وقد عبر فيلسوف النكسة هس عن هذه الفكرة بشكل مبلور، فهو يؤمن بان الدين اليهودي قد أصبح -على حد قوله- مصيبة أكثر منه دينًا خلال الألفي عام الماضية، ولكنها مصيبة لا فكاك منها، وعلى اليهودي أن "يتحمل نير مملكة السماء حتى النهاية".

ويرى هس أن المسكيليم مخطئون أن ظنوا "أن باستطاعتهم النجاة من هذه المصيبة بالتنور أو التنصر" (٣٩)، وهو في مكان آخر يبين عبث محاولة تطوير الدين اليهودي فيقول: "حاول المتنورون أن يُعرِّضوا المسرح اليهودي إلي ضوء الثقافة الحديثة وذلك بخرق القشرة الصلبة التي سلح الحاخامات اليهودية بها، لا يستطيع أحد حتى مندلسون العظيم أن يفعل هذا الشيء دون أن يخرب لب اليهودية الداخلي" (٢٦)، إذا كان اللب نفسه قبليًا ومتخلفًا وضيقًا فإن أي دعوة نحو العالمية والشمولية هي في صميمها دعوة للقضاء على اليهودية. يقول هس: "إن الهسكلاه قد نادت بعدم الإيمان بقوميتنا كأساسٍ للدين اليهودي فليس غريبًا إذن ألا تؤدي هذه الإصلاحات إلا إلى "عدم الاكتراث باليهودية والتحول إلي النصرانية" (٢٦).

لقد توصل مفكرو الصهاينة الأُوَل إلى أنه لا يمكن فصل الدين عن القومية، وبالتبعية لا يمكن إدخال المُثُل الليبرالية المستنيرة على اليهودية، ولقد كان الصهاينة مُحِقِّين إلى حد ما في مخاوفهم، فبعد أن جرَّد مندلسون الدين اليهودي من القيم القومية، لم يتبق منه سوى قيم روحية عامة لا تختلف عن قيم أي دين آخر، ولذا وجد الكثير من أتباع مندلسون أن من المنطقي أن يعتقدوا الدين

المسيحي، بل أن اليهودية الإصلاحية بدأت كمذهب بمحاولة الانضمام إلي الكنيسة اللوثرية في ألمانيا، على شرط أن يقوم اللوثريون بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على الطقوس الكنسية (وبالطبع رُفض هذا الطلب).

ونرى أن سيادة التيارات الرجعية بين الجماهير اليهودية، وتوقعات الصهاينة غير المنطقية من حركة الهسكلاه هو ما أقنع أعدادًا كبيرة من هذه الجماهير بأن التنوير قد فشل وأنه لابد من البحث عن البديل، بمعنى أن الأسباب الذاتية الخاصة باليهود وبالمجتمع اليهودي أسهمت بشكل فعَّال في تحديد مسار التاريخ اليهودي في عصرنا الحديث.

الفصل الثاني : الصهيونية وهزيمة العقل اليهودي

(١)

لا عقلانية الصهيونية وبنيتها:

على الرغم من أن الصهيونية هي الحركة الفكرية اليهودية التي حلَّت محلَّ الهسكلاه إلا أنها لم تكن وريثتها، وإنما كانت في كثير من النواحي نقيضها. فالفكر الصهيوني ليس نتاج الفكر الاستشاري العقلاني الذي يؤمن بالدولة العلمانية المبنية على التنوع وعلى الصراع وعلى تقبل جميع المواطنين باختلاف مللهم، بل هب نتاج الفكرية الرجعية التي أعقبت ما تصورته الجماهير اليهودية بأنه فشل الهسكلاه.

والكتابات الصهيونية تموج بالشعارات إلى تفوق العاطفة على العقل، واللاوعي على الوعي، والمطلقات الصوفية على الظواهر التاريخية الإنسانية.

يقول إليعازر بن يهودا (١٨٥٨ – ١٩٢٣) أحد رواد النهضة العبرية الحديثة "يتحرك قلب الإنسان بالعاطفة وليس بالعقـل؛ لأن قلب الإنسان -حتى قلوب المسكيليم- هب قلوب رقيقة يمكن التغلب عليها بمثل هذه العاطفة" (٦٤). أما موسى هس فيلسوف النكسة التي صدرت عنها الصهيونية فهو في عودته لشعبه يعود لعاطفته "لقد تبين لي أن العاطفة التي ظننت اني قد كبتها عادت إلى الحياة من جديد ... تأججت هذه العاطفة نصف المخنوقة في صدري محاولة التعبير عن نفسها" (٢١)، وهو يحدد العاطفة بآنها عاطفة صوفية "إنها التفكير في قوميتي التي ترتبط برباط لا تنفصم عراه بتراث أسلافي وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة وما إلى ذلك من أشياء سرمدية !، هو يعي -لا عقلانية- موقفه الجديد، إذ يؤكد لمجرى التاريخ اليهودي "الذي أهمله العقلانيون كثيرًا" وأن استمداد "الإلهام من منابع اليهودية الرئيسية "سيوقظ في الأفئدة اليهودية الروح الوطنية التي تحلَّى بها الأنبياء والحاخامات " وفي هذا خير رادع للعقلانية الهدامة" (٢٩).

وأسطورة العودة إلى أرض الميعاد تُفَسَّر على أنها عودة للأرض التي يمكن لليهودي أن يطلق فيها العنان لخياله وعواطفه. يقول الحاخام أبراهام كوك:"لا يستطيع اليهودي أن يكون مخلصًا وصادقًا في أفكاره وعواطفه وخيالاته في أرض الشتات كما يكون في أرض إسرائيل؛ فالوحي المقدس، بأي درجة كان، يكون نقيًا فقط في أرض إسرائيل، أما في خارجها فانه يكون مشوشًا ملوثًا وغير نقي" (٢٩٥).

ويكشف موشيه ليلينبلوم يهوديته حينما يتعذب، إني لمسرور إذ تعذبت، فأتيحت لي الفرصة على الأقل كي أشعر بما يشعر به أجدادي كل يوم في حياتهم، كانت حياتهم كلها عبارة عن رعب طويل، فلم إذًا لا أمارس الشعور بذلك الخوف الذي ملأ حياتهم" (٦٩). إن اكتشاف الخوف يجعله يهجر المُثُل المستنيرة ليستخدم المصلح الصوفي، "عندما تفتحت عيني على المثل الأعلى الجديد وارتفعت روحي لمستوي العمل الجديد الذي يكمن فيه خلاصنا الأبدي، تركتني المُثُل القديمة (المستنيرة) في لمح البصر" (٧٠).

إن الهروب من العالم العقل والتاريخ والهسكلاه إلي عالم اللاعقل والمطلق والغيبيات القديمة هو إحدى سمات الفكر الصهيوني، ولكن لأن الصهيونية جاءت في أعقاب الانعتاق والهسكلاه لم يكن في مقدورها العودة الكاملة للتراث اليهودي القديم ، لا ولم يكن في استطاعتها تجاهل الواقع المتطور الجديد، ولذلك اضطرت لإضفاء مسحة من العصرية والعقلانية على تصورها الغيبي والأسطوري للانتماء اليهودي.

وسنعرض في هذا الفصل لبعض السمات العامة للفكر الصهيوني، مهملين أحيانًا كثيرًا من الجزئيات حتى يتسنى للقارئ أن يلم بجوهر التصور الصهيوني للواقع، بغض النظر عن الخلافات الفكرية والتاريخية التفصيلية التي تميز جماعة صهيونية عن أخرى، ولعلَّ المبرر الأساس لهذا المنهج هو أن الصهيونية ليست أيديولوجية بالمعنى الشائع للكلمة تحاول تقديم نظام للقيم ونظرة شاملة للعالم السياسي والاقتصادي وإنما هي "موقف عام من الحياة" وأفكار مجردة تحدد علاقة اليهودي بالعالم وبالتاريخ، ولهذا السبب لم أستخدم اصطلاحات مثل: "يمين أو "يسار" أو "أيديولوجية".

وقد يمكن القول أن الأيديولوجية، أي أيديولوجية، إن هي إلا "موقف عام من الحياة"، وهذا قول قد لا يقبل المناقشة، ولكنه يحتاج إلي كثير من التعديل، فنحن نعرف أن ثمَّةَ علاقة ما بين الأيديولوجية والواقع المادي، وهي علاقة مُرَّكبة للغاية لم تُدرس بما فيه الكفاية حتى الآن ولا تزال معظم جوانبها سرًا مغلقًا بالنسبة لنا، ولكننا دون شك يمكننا أن نرى ثمة عناصر تدخل في تركيب الأيديولوجية هي أقرب للأساس الاقتصادي من غيرها.

فالنظريات السياسية والقوانين هي نتاج شبه مباشر لحركة المجتمع الاقتصادية، في حين أن علاقة الشعر والموسيقى باقتصاديات المجتمع ليست بنفس القوة، وإذا

بدأنا في تقييم قصص الأطفال والأساطير الشعبية وجدنا أنه ليس من السهل علينا التعرف على علاقتها بالواقع الاقتصادي الذي أنتجها. وإذا نحن قبلنا هذا التعريف بخصوص الأيديولوجيات لأمكنَ أن ننظر إلى الصهيونية على أنها مجموعة من الأفكار المجرَّدة التي ضعفت صلتها بالواقع الاقتصادي الذي أنتجها (أي واقع اقتصادي سواء كان الجتو الأوربي الصغير أم الجتو الإسرائيلي الكبير).

الصهيونية في تصورنا إذن هي برنامج سياسي يأخذ شكل أفكار مجردة أسطورية، تبدو وكأنها لا علاقة لها بالواقع السياسي، فالاستعمار الاستيطاني يصبح عودة الشعب إلي أرض الميعاد، والمهاجرون اليهود يصبحون " معابيليم "(١) أي مجرد" مهاجرين إلى أرض إسرائيل" كما جاء في العهد القديم، والعنصرية الصهيونية تكتسب شرعيتها العاطفية من فكرة الشعب ذي الرسالة الخالدة، ويصبح الفلسطينيون مجرد سكان مؤقتين في هذه الأرض لا بد من إبادتهم .

وضعف علاقة البرنامج السياسي الصهيوني بالواقع الاقتصادي حقيقة ترجع هي ذاتها إلى أسباب اقتصادية تاريخية، فأقليات اليهود المختلفة في أوربا (وهى الأقليات التي أفرز وضعها الفكر الصهيوني) لم يكن لها علاقة محددة بوسائل الإنتاج، ولذا لم يكن وعيها السياسي محددًا واضحًا: إن عدم وجود مكان محدد لليهود في المجتمع وعدم انتماء اليهودي لقوي اجتماعية واضحة، وتخلفه الحضاري (خاصة في شرق أوربا) كل هذا جعله غير قادر على التعامل مع الواقع المتقدم من حوله، وأدى إلى إفراز فكر له طابع مجرد أسطوري، ساعد الجماهير البورجوازية الصغيرة وقيادتها الصهيونية على أن تنظر لنفسها على أنها شعب أسطوري مختار، وقد بيَّن الأستاذ قدري حفني في كتابه تجسيد الوهم أن وضع اليهودي الحضاري في الجتو ضخَّم من إحساسه بالاضطهاد والتفرد، وإذا أردت ترجمة هذا المصطلح السيكولوجي إلى مقابلة الفلسفي لقلت أن وضعه في الجتو جعله ينظر إلى نفسه على أنه خارج التاريخ يحيا حياة "مثالية" مجردة. وعن طريق هذه الأفكار المجردة أمكن للصهيونية تجنيد جماهير البورجوازية الصغيرة اليهودية في أوربا الشرقية، وعن طريقها لا تزال قابضة على الإسرائيليين تسيرهم وتوجههم.

هذه البنية الأسطورية وضعت فيها محتويات "فكرية" استوردها الصهاينة من أيديولوجيات أخرى، وهي محتويات لا يأخذها المفكرون الصهاينة أنفسهم مأخذ الجد، فمثلًا يؤمن جميع الصهاينة بفكرة الدولة اليهودية، وهذه هي نقطة البدء –

والنهاية- بالنسبة لهم، كما أنها الركيزة التي تستند إليها تحالفاتهم، أما المحتوى الاجتماعي لهذه الدولة فمسألة مؤجلة حتى وقتنا هذا، فلا الاشتراكيون يُصرِّون على اشتراكيتهم (فحزب المابام "اليسارى" مثلًا يؤيد التدخل الأمريكي في فيتنام، ولا يعارض الاستثمارات الأجنبية والخاصة في إسرائيل)، ولا الليبراليون الرأسماليون يُصرِّون على ليبراليتهم ورأسماليتهم (فحزب المابام يدخل في تحالف مع الأحزاب الدينية مطلقًا يدها في كثير من جوانب الحياة في إسرائيل العلمانية، كما أن الأحزاب اليمينية لا ترفض التحالف مع الأحزاب اليسارية وتتقبل بعض السمات الاشتراكية أو "الجماعية" التي تتسم بها الحياة في إسرائيل)، ولا الدينيون يُصرِّون على تطبيق مُثُلهم "الروحية الدينية"، إنما نجدهم كلهم يتحدثون عن أساطير مجردة؛ مثل: العودة إلي أرض الميعاد، وعن المسيح المنتظر، وعن أمة الشهداء والأبطال المختارة.

وقد يُقال أن هذه الأساطير الدينية هي الأخرى "محتويات" دينية وأنها هي الأخرى إضافة ميكانيكية تساعد الصهاينة على إضافة بعد تاريخي وعاطفي لفكرهم الأسطوري الفاشي المجرد، وفي هذا شيء من الصدق، وقد حاولنا في دراستنا أن نصل لبنية الفكر الصهيوني الحقيقية وأن نُبين أحاديتها الخانقة وقدريتها ولا إنسانيتها ومعاداتها للتاريخ، أي أن نصل إلى تلك البنية المجردة ذاتها والتي تعلو على كل الأفكار الدينية والسياسية الأخرى، والتي تحتوي كل المحتويات الأيديولوجية الصهيونية اشتراكية كانت أم ليبرالية.

ولكننا في الوقت ذاته وجدنا أن تجريدية الفكر الصهيوني ولا تاريخيته ولا عقلانيته لها جذور قوية في أسطورة أرض الميعاد والمسيح المنتظر، فالفكر الصهيوني نما وترعرع في تربة الفكر الديني اليهودي المحافظ، ولذلك فعلاقة بنية الفكر الصهيوني بالأساطير الدينية علاقة قوية، بل إنه يمكننا القول أن الفكر الصهيوني لا يستغل الدين اليهودي بشكل تقليدي وحسب، بل إن بنيته الفكرية ذاتها تشبه في وجوه عدة بنية الأساطير اليهودية القديمة، (على عكس علاقته بالأفكار السياسية المختلفة، فهي علاقة واهية للغاية تشبه علاقة الجوهر بزخارفه الخارجية وليس بتجسيداته المحسوسة).

إن الصهيونية هي فكر سياسي يأخذ شكل بنية فكرية متسقة لا تختلف في تركيبها كثيرًا عن الأساطير اليهودية الدينية، وأن هذه البنية السياسية تستغل الدين اليهودي

لتكتسب بعدًا تاريخيًا وإنسانيًا، كما أنها تستغل كثيرًا من الأفكار السياسية العلمانية والثورية لإضفاء صبغة علمانية أو ثورية على نفسها.

وقد تنبه كثير من الصهاينة لهذه الحقيقة، فالحاخام صموئيل حاييم لانداو (١٨٩٢-١٩٢٨) يشير إلي أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة واحدة؛ "وكل القيم الأخرى إن هي إلا أداة في يد هذا المطلق الأمة" (٣٠٨).

أما جاكوب كلاتزكين (٨٨٢ – ١٩٤٨) الفيلسوف والصحفي الصهيوني البولندي الأصل فيوضح القضية بشكل ينم عن الذكاء في مقالة "الحدود"، فهو يبين أن اليهودية "تعتمد على الشكل وليس على المضمون"، هذا الشكل الأساسي -كما يقول- هو "تخليص الشعب اليهودي للأرض" ، أما المضامين الروحية أو الفكرية المختلفة فقد تختلف بشكل راديكالي، ولكن هذا لا يهم"لأن مضمون الحياة نفسه سيصبح قوميًا عندما تصبح أشكالها قومية" (٢٠٤)؛ بمعنى أنه إذا كانت بنية الفكر تدور حول مطلق الأمة والكيان القومي فان أي محتوى فكري آخر سيكتسب حتمًا بعدًا قوميًا.

ولكن يبدو أن كلاتزكين لم يتنبه إلي أن هذه البنية القومية الصهيونية هي أساسًا بنية أسطورية دينية ولذلك فهو كان واثقًا بشكل ساذج من أن الاتجاه نحو العلمانية في الحركة القومية اليهودية هو الذي سيسود في نهاية الأمر وأن شخصية النبي وأخلاقياته، والتي يمثلها أحاد هعام في رأيه، والتي لا تزال تحجب النور القومي الذي يمثله هرتزل العلماني (٢٠٥)، وهي شخصية ولا شك في طريقها إلي الزوال، والأمر الذي لم يتنبه له كلاتزكين أو الصهاينة الليبراليون والاشتراكيون هو أن الفكر القومي اليهودي رغم علمانية محتواه الظاهر فإن بنيته تجسد محتوي غيبي واضح (خاصة وأن التراث اليهودي لا يُفرِّق بين ما هو قومي وما هو مقدس) وأن علمانية الصهيونية لم تكن إلا مضمون فكري لا يؤثر في البنية الأسطورية. وهذه حقيقة تبينها المتدينون والرجعيون وحدهم، ولذلك فقد دخلوا في تحالفات مع الصهاينة العلامانيين مطمئنين إلى أن الغلبة ستكون لهم في نهاية الأمر، وقد بيَّن مسار التاريخ اليهودي في العصر الحديث أن توقعاتهم كانت في محلها وأنهم لم يخنهم التوفيق:

وجوهر هذه البنية القومية الأسطورية -كما أشرنا من قبل- هو الأحادية الخانقة فنحن نجد في الفكر الصهيوني -تمامًا كما هو الحال في الأساطير اليهودية- أن الجزء يذوب في الكل، والتفاصيل العديدة المحسوسة والنسبية تذوب في المطلق،

والتاريخ المتنوع المتعرج يصبح تعبيرًا عن فكرة واحدة، تمامًا مثلما كان يتحرك الشعب المختار في المطلقات الأحادية (ومن هنا كانت دائرية الفكر الصهيوني - التي سنوضحها فيما بعد- ومن هنا كان جدله الزائف، وكل جدل زائف يأخذ شكل دائرة منغلقة على نفسها، على عكس الجدل الحقيقي الناتج عن التفاعل مع واقع محسوس، الذي يمكن القول أنه يأخذ شكل حركة حلزونية متقدمة للأمام)، هذا الضرب من التفكير الذي ينجو دائمًا نحو الكل والواحد يطلق عليه اصطلاح البانتيزم أو وحدة الوجود ولكن لم ندرس مثل هذه الأفكار الأسطورية المجرَّدة، أليس من الأفضل أن ندرس الواقع الإسرائيلي المعاصر، إن دراسة الواقع الإسرائيلي مسألة هامة ولا غنى لنا عنها، ولكننا يجب أن نضع في الاعتبار أن ما يحدد سلوك الأفراد ليس"وضعهم الاقتصادي المجرد والمباشر، وإنما الأفكار والرؤى المحسوسة والأساطير التي يفرزها هذا الواقع ثم تسيطر عليه.

والدور الذي تلعبه الأفكار في تحديد سلوك الإنسان هو ما يفسر أن أفراد نفس الطبقة قد يسلكون سلوكاً ثوريًا أو ليبراليًا أو فاشيًا، بل أن الفاشية هي أكبر دليل في عصرنا الحديث على الدور الذي تلعبه الأفكار في فصل الجماهير وجدانيًا عن وضعها الاقتصادي وتعبئتها وتسييرها لتحقيق أهداف ليس لها سوى علاقة واهية بواقعها الموضوعي، بل أن هذه الجماهير ضحية الوعي الزائف لتسير أحيانًا من أجل مُثُل ورؤى معادية لمصلحتها هي نفسها، ودولة إسرائيل تطفو على سيل جارف من المساعدات تجعلها "متحررة" من أي واقع اقتصادي محدد، ولذا يفشل الإسرائيليون -كمجموعة بشرية- في تحديد وعيهم الاقتصادي والتاريخي، وينمو بالتالي وعيهم الزائف ويضمر وعيهم الحقيقي بالواقع الموضوعي، إن مساعدات يهود الدياسبورا تساعد إسرائيل على أن تستمر في أن تكون دولة "فكرة" يسيطر عليها الفكر الصهيوني ببنيته الأسطورية.

وقد ساعد العرب أنفسهم على استمرار هذا الوضع بفشلهم النسبي حتى الآن في إلحاق أي نوع من الهزيمة بإسرائيل، فالمواطن الإسرائيلي مثل المواطن النازي ضحية الوعي الزائف، وعلينا أن نتذكر أن النازيين لم يستيقظوا من أحلامهم إلا بعد أن ارتطمت هذه الأحلام بالواقع الموضوعي، كما أن العرب بإلغائهم الوجود الفلسطيني أو بوضعه تحت الوصاية الجبرية خلقوا لإسرائيل الفراغ اللاتاريخي الذي مكَّنها من التنفس والتحرك بحرية وطلاقة، فضلًا عن أن ما يبديه العرب من مظاهر الرفض الكامل لكل قطاعات المجتمع الإسرائيلي بما في ذلك القطاعات

المعادية للصهيونية من شانه أن يطمس معالم التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع الإسرائيلي، ويزيد من هيمنة وسيطرة الوعي الزائف. لكل هذه الأسباب تكون دراسة بنية الفكر الصهيوني مسألة بالغة الحيوية لأنها ستساعدنا على تفهم عقل عدونا وعلى التنبؤ بسلوكه، وعلى اختيار أنجح الوسائل لمجابهته.

(٢) : حلول الله في التاريخ ووحدة الوجود اليهودية:

يستند أي برنامج سياسي إلي رؤية للإنسان ونظرة للتاريخ، فالبرنامج النازي كان يصدر عن فكرة تفوق العنصر الآري، وعن تصور محدد للتاريخ الألماني وللتاريخ البشري ككل، والبرنامج السياسي الصهيوني لا يشذ عن هذه القاعدة، فالصهاينة يطرحون تصورًا محددًا للتاريخ اليهودي والإنساني، ومما له دلالته أن بيان "إعلان استقلال" إسرائيل، رغم أنه دون شك بيان سياسي بالدرجة الأولى، يحتوي على رؤية للتاريخ اليهودي وعلى بعض التعميمات المتعلقة بالنفسية اليهودية، يقول البيان:"إن أرض إسرائيل هي المكان الذي ولد فيه الشعب اليهودي، وهنا تشكلت ذاتيتهم الروحية والدينية والقومية، وهنا حصلوا على استقلالهم وخلقوا حضارة لها فحوى قومي وعالمي، وهنا كتبوا الكتاب المقدس وقدموه للعالم".

وبعد الحديث عن نشأة الأمة اليهودية يستطرد البيان ليتحدث عن حالتهم النفسية بعد التشتت: "حافظ الشعب اليهودي على ولائه لأرض إسرائيل بعد نفيه منها إلى بلاد الشتات، ولم يتوقف قط عن الصلاة والأمل في العودة وفي استرجاع حريته القومية، هذا الارتباط بالأرض دفع اليهود إلى الكفاح عبر القرون للعودة إلى أرض آبائهم وليستعيدوا كيانهم كدولة مستقلة، وقد عادت (بالفعل) جماهير عديدة في السنين الأخيرة"(٢).

ثمة تصور ما للتاريخ اليهودي وللنفس اليهودية إذن يستند إليه البرنامج السياسي الصهيوني، وإذا كانت دراسة مثل هذه التصورات مسألة هامة لفهم أي برنامج سياسي؛ فإن أهميتها تتضاعف إذا كنا بصدد دراسة الفكر الصهيوني لأن الصهيونية أعطت أهمية غير عادية للتاريخ وللتراث اليهوديين، كما أنها رأت وجود ارتباط واضح بين اليهودي كفرد وكعضو في جماعة بشرية من جهة والتاريخ اليهودي من جهة أخرى، ففهم الرؤية الصهيونية للتاريخ هو في تصوري خير السبل للإحاطة بالبرنامج السياسي الصهيوني وبنية الفكر الصهيوني ذاتها.

ولفهم الرؤية الصهيونية للتاريخ لابد من العودة للتراث اليهودي القديم ولتصور اليهود لله، فعلاقتنا بالله (المطلق) هي التي تحدد علاقتنا بالتاريخ (النسبي المتغير)، ونحن إذا ما نظرنا إلى العهد القديم لوجدنا إشارات عديدة إلى الله على أنه كائن له خصائص إنسانية وأنه ليس معصومًا من الخطأ أو الغضب أو الخجل، فهو على سبيل المثال رجل حرب (خروج: ١٥:٤)، وهو يأمر اليهود بقتل النساء بل

والأطفال والذكور (عدد ٣١:١-٣)، وهو رب قوي الذراع يأمر شعبه بألا يرحم أحدًا (تثنية ٧:١٦-١٩)، كما أن مقاييسه الأخلاقية تختلف حسب الزمان والمكان وحسب ما تمليه الاعتبارات العملية، فهو يأمر الشعب المختار بضرب جميع الذكور بحد السيف في المدن البعيدة عن أرض الميعاد، أما سكان مدن أرض الميعاد ذاتها فمصيرهم الإبادة ذكورًا كانوا أم إناثًا أم أطفالًا.

والتصور اليهودي لله في مرحلة ما قبل النفي كان يجعل منه إلها قوميًا خاصًا بالشعب اليهودي وحده بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها، ففي سفر الخروج (١١:١٥) وفي الوصايا العشر (خروج ٢٠:٤) إشارات لآلهة أخرى.

وفي قصة راعوث (١٥:١) ثمة إشارة إلى شعبها وآلهتها، ولذلك نجد أن هذا الإله اليهودي القومي يطلب من أفراد شعبه أن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم المصريين عن طريق الخطأ. (خروج ١٢:١٣ - ١٤) أي أننا يمكننا القول أن اليهود القدامى كانوا يؤمنون بإله واحد ولكنهم لم يكونوا قط من الموحدين بالله(٣)، إن الإله حسب التصور اليهودي لم يكن حقيقة مطلقة تعلو على المادة، بل هو في الواقع امتداد لما هو نسبي، وحتى بعد أن تحول هذا الإله النسبي إلى اله العالمين، نجد أنه يظل بالدرجة الأولى إله إسرائيل على وجه الخصوص، بل أنه نظرًا لعالميته تزداد أهمية شعبه، ومما لا مراء فيه أن رؤية اليهود القومية الخالصة هذه قد عُدِلَّت فيما بعد، وأصبحت أقل قبلية وبدائية، ولكن على الصعيد الوجداني بقى الله اليهودي امتدادًا لوعي الأمة اليهودية بنفسها، ولم يحل التصور النظري الجديد محل التصورات القبلية خاصة وأن اليهود، حتى بعد أن أصبحوا من الموحدين، احتفظوا بتصورات بدائية قبلية عديدة مثل مفهوم الشعب المختار،كما أن شعائر الدين اليهودي تحتوي على تيار قوي للغاية يضفي على تصور اليهودي للخالق، رغم تحوراته وتبدلاته، عنصرًا قوميًا محليًا، وأن الناقد الفاحص للفكر الصهيوني ليلاحظ آثارا كثيرة لهذا الفهم الضيق لله، فبياليك (١٨٧٣ – ١٩٣٤) الشاعر الصهيوني، الروسي الأصل، يصف يوم الاحتفال بالجامعة العبرية بأنه "يوم عظيم ومقدس بالنسبة لإلهنا وشعبنا" (١٧٣)، وطريقة بياليك في الإشارة للخالق تُذَكِّر الإنسان بموقف اليهود القدامى اللذين طالبوا أن تتسمى كل أمة باسم إلهها (٢٦٥) (وهي كلمات يقتبسها باستحسان كبير آروون دفيد غورودون (١٨٥٦- ١٩٢٢) الفيلسوف الصهيوني المتصوف، ويؤكد بوبر هذا الجانب من الإله اليهودي، فهو إله يُكِنُّ "حبًا خاصًا" لإسرائيل (وهذه عبارة يقتبسها

بوبر من أقوال الأنبياء (١٨:١١١) كما انه اعتبر اليهود "كنزه الخاص من بين جميع الشعوب" (وهذه عبارة أخرى اقتبسها بوبر من سفر الخروج (٥:١٩) (٣٣٧). وهذا الإله القومي هو الذي تجسَّد في نهاية الأمر في الوثن القومي الأعظم دولة إسرائيل.

وليس الإله اليهودي وحده هو الإله القومي بل أن كل المقدسات اليهودية تأخذ هذا الطابع القومي، فالتوراة ليست كتابًا روحيًا يقرأه ويعي محتواه الأخلاقي من يشاءه بل هو كتاب الشعب اليهودي وحده، وأرض الميعاد هي الأرض التي سيتجمع فيها الشعب المختار (وقد عمقت فكرة أرض الميعاد من قومية الإله اليهودي، فهو لم يعد إلها قوميًا مرتبطًا بشعب وحسب بل جعلت منه إلها مرتبطًا بمكان أيضًا) والمسيح المنتظر الذي سيأتي بالخلاص لكل البشر في آخر الأيام هو الآخر بطل قوي؛ لأنه سيجمع اليهود المشتتين في الأرض التي سكنوها، كما أنه من نسل الأسرة المالكة اليهودية أسرة داود وسليمان!

ولكن إذا اكتسبت المقدسات طابعًا قوميًا فلا بد وأن تكتسب الظواهر القومية طابعًا مقدسًا، وهذا هو ما حدث بالفعل، فالتفكير اليهودي القديم والتفكير الصهيوني الحديث يشتركان في الإيمان بأن للشعب اليهودي بعض السمات الربانية المطلقة، فالشعب العبري سُمي بني إسرائيل بعد أن صارع يعقوب الملاك (في حادثة غامضة لا يمكن فهم مدلولها مثل معظم الأساطير اليهودية الأخرى)، وقد سُمي بعده "إسرائيل"؛ أي "بطل الله"، وأصبح العبرانيون إسرائيليين أي: المدافعين عن الله"، وبذا أصبح الشعب امتداد الله في الأرض يخاطبه اليهود بكثير من عدم الكلفة "ماذا تكون كإنسان قد تحيَّر، كجبار لا يستطيع أن يُخلِّص، وأنت في وسطنا يا رب وقد دعينا باسمك لا تتركنا" (أرميا ٩:١٤). إن الله قد حل في الأمة "وأصبحت إسرائيل مشبعة بروح الله، بروح الاسم القدس) (٢٩٧). وحلول هذه "المادة الإلهية" في الشعب هو ما يميزه عن غيره من الشعوب الأولى (٣٠٠) كما يقول الحاخام الصهيوني إسحاق كوك (١٨٦٥-١٩٣٥)، ولأن الشعب قد حل فيه الله فإن كل شيء يهودي قومي تحيط به هالة من القداسة، ولعلَّ الإيمان بارتباط القومي بالمقدس هو الموضوع الأساسي في الفكر الصهيوني والخاصية الأساسية التي تميز بنيته (على عكس الفكر الإصلاحي الاستناري الذي حاول أن يفصل القومي عن المقدس، وأن يقدم مفهومًا انسانيًا وعالميًا وتاريخيًا لليهودية)، ويظهر هذا الارتباط بطبيعة الحال بشكل واضح في كتابات الصهاينة الروحيين المتدينين.

فيحيل ميخائيل باينس (١٨٤٢ -١٩١٢) الكاتب البولندي الصهيوني يشير إلى أن الشعب اليهودي لم يأت إلى الوجود كجماعة مستقلة بطريقة عادية، ولكنه جاء كجماعة بشرية لها ديانتها المستقلة، مرتبطة بميثاق مشترك يقضي باتباع تعاليم هذه الديانة" (٢٨٨)، ويؤكد بياليك أن الأمة اليهودية قد شكَّلت أسس "تراثها القومي ومؤسساتها القومية الرئيسية ضمن حدود مملكة الروح" فالشعب قد "غرس أقدامه" وثبتها "خلال كل العصور في التربة الأزلية" (١٧٣)،

ويقول الحاخام الصهيوني، الألماني الأصل، مايرايلان (١٨٨٠_١٩٤٩) أن القانون اليهودي لم يكن قط ذا طبيعة علمانية. "فالكنيسة" اليهودية لم تفقد الاهتمام بأمور الدولة، كما أن الدولة لم تفقد الاهتمام "بالكنيسة"؛ "لأن هذين المجالين ليسا منفصلين ضمن الحياة اليهودية" (٤٢٠). ولذلك فاليهود -على حد قول بانيس- يمقتون القومية اليهودية العلمانية (٢٩٠) لأن قوميتهم "روحها التوراة وحياتها تعاليم التوراة ووصاياها" (٢٩١)، وهذه بطبيعة الحال قومية لا يمكن للجوييم فهمها "فغير اليهودي لا يتمكن من تقدير مفهوم التوراة بكل فحواه القومية؛ لأنه لا يمكن التعبير عنه بشكل مرض بأية لغة أخرى" (١٧٤) (على حد قول بياليك).

وقد احتفظ العلمانيون ببنية أسطورة الأمة المقدسة (ظاهرة تاريخية "اليهود" ذات أصل مثالي تاريخي "الميثاق مع إبراهيم") بعد أن صاغوها صياغة "علمانية"، فاستحدثوا مفهوم "أمة الروح" القائل بأن القومية اليهودية لا تستند إلي أي أساس مادي معروف وإنما تستند إلى التراث اليهودي والروح اليهودية والرسالة الأخلاقية اليهودية، وقد يختلف محتوى الأسطورة العلمانية عن الأسطورة الدينية إلا أن البنية متماثلة، ولعلَّ أكبر دليل على أن ما هو مقدس لا يزال مرتبطًا بما هو قومي في الوجدان الصهيوني؛ أن الصهاينة يخلعون صفة القداسة على أشياء وظواهر يعتبرها معظم الناس (متخلفين كانوا أو متحضرين) ظواهر نسبية تاريخية؛ فانتصارات الجيش الإسرائيلي وحركة الكيبوتزات وبن جوريون تحيطهم هالة صوفية، بل غن بطاقة الهوية الإسرائيلية تحيطها هي الأخرى هالة من القداسة (وهذا يفسر الغضب "القومي" الذي يسببه تمزيق شالوم كوهين عضو الكنيست لبطاقة هويته).

ولأن الشعب مقدس كان من المنطقي للغاية أن يصطفيه الله على العالمين، وأن تصبح إسرائيل أداة الله لخلاص العالم، ونورًا للأمم (أشعيا ٤٩:٧).

"إن اليهود كشعب يحاول كشف طبيعة الله للعالم ورفع رأس الإنسان عاليًا باسم الله من أجل تمجيد عظمته (٢٩٦)"؛ كما يقول الحاخام كوك، وهذا ولا شك سيؤثر على جميع البشر، أما بوبر فهو يؤكد أن إسرائيل قد اختيرت لتتمكن من الارتفاع في تفكيرها عن القوة البيولوجية التي تمجدها الشعوب إلى دائرة الحقيقة والاستقامة" (٣٣٨)، وينصح بوبر الأمة اليهودية بأنه لا سبيل لإعادة بناء إسرائيل وتحقيق أمنها إلا عن طريق أن يتحمل الشعب "عبء وضعه الخاص وعبء نير مملكة الله" (٣٣٣)، وتدور معظم الطقوس والعادات اليهودية حول فكرة الاصطفاء هذه؛ فعلى اليهودي ألا يعمل يوم السبت لا ليستريح بل ليتميز عن الآخرين، وعليه أن يمارس عادة الختان، لا لأسباب صحية، و'نما ليصبح مختلفًا عن الآخرين، وميثاق الله مع الشعب اليهودي هو الآخر وسيلة ليحتفظ الشعب بنقائه وصفائه، وتنفيذ القانون اليهودي إن هو إلا الطريق نحو الاحتفاظ بالتفرد.

إن معظم الطقوس اليهودية، رغم أنها تكتسب طابع القداسة، خالية من المحتوى الأخلاقي، فياضة بالقيم القومية القبلية، ونفس اللاأخلاقية تُلاحظ في فكرة الأرض التي وعدها الله إبراهيم، فالوعد لا يستند لأي أساس أخلاقي؛ أن الأرض لم تعط لإبراهيم لورعه أو تقواه، ولم تعط للشعب اليهودي لنشر القيم الأخلاقية، بل أعطت لهم وحسب. هذا سر صوفي لا يحتاج لأي تبرير أخلاقي، ورغم محاولات بوبر وبعض المفكرين اليهود القدامى إضفاء طابع من الأخلاقية والإنسانية على مثل هذه المفاهيم إلا أن طابعها الغالب لا يزال لا أخلاقيًا، وليس من السهل أن ينتزع من الوجدان الصهيوني اليهودي أساطير أقدم من التاريخ!(٤). هذا التصور للأمة اليهودية على أنه الشعب المختار قاسم مشترك في كتابات الصهاينة.

وقد يمكن القول أننا اقتبسنا آنفًا من كتابات بعض الصهاينة المتدينين أمثال كوك أو المتصوفين أمثال بوبر، ولكن أي نظرة -ولو عابرة- يلقيها المرء على الكتابات الصهيونية تقنعه بأن فكرة الشعب المختار تسيطر على وجدانهم؛ فنحن نجد هرتزل العلماني الليبرالي الغربي يدافع عن هذا التصور، يشاركه في ذلك بن جوريون "الاشتراكي الديمقراطي"، بل إن دوف بير بورشوف (١٨٨١ – ١٩١٧) المادي الجدلي الصهيوني هو الآخر يتأثر بفكرة الأمة التي لها وضع متميز عن كافة الأمم. ولا يزال الصهاينة ينظرون إلى إسرائيل على أنها رائدة بعث روحي عالمي رهيب، وهم في هذا لا ينظرون إلي إسرائيل الحقيقة إسرائيل النابالم والتوسع والإرهاب، بل إلى إسرائيل دولة الشعب المختار. وينتج عن حلول الله في الأمة

أن أفرادها يصبحون كهنة وقديسين وأنبياء بل ومسحاء مخلِّصين؛ فالشعب اليهودي يُوصف في العهد القديم بأنه "خادم الله" "وكنز الله الغالي" وهذه ـوصاف تستخدم لوصف الأنبياء، كما أن الشعب مثل الأنبياء مدين بوجوده لله الذي قاده سالما من أرض مصر وساعده على غزو أرض كنعان، ولعل هذا يفسر ظاهرة تعدد النبياء اليهود وتغلب التيار النبوي في الفكر الصهيوني؛ فبياليك يتحدث بإعجاب ووله عن أنبياء اليهود الذين "يحملون عاصفة روح الله في قلوبهم وزلازله ورعوده في أفواههم" إنهم يعيشون خارج الوجود الإنساني فقد حولوا "أنظارهم إلى الأزلية"، إلى السموات والأرض، وكانوا في نهاية المطاف هم الذين أقاموا أسس الثقافات الدينية والأخلاقية في العالم" (١٧)، وترتكز الصهيونية الروحية إلي فكرة اليهودي كنبي بشكل سافر، بينما نجد أن الفكرة هي الأساس المستتر الذي تستند إليه المدارس الصهيونية الأخرى فبن جوريون الاشتراكي الروحي كثيرًا ما يتحدث عن اليهودي العادي على أنه نبي وشهيد بل ومسيح مصلوب.

كما يؤكد نحمان سركين الاشتراكي أن استشهاد اليهودي "قد رفعه إلى مستوى خادمها البائس... ومن تاج آلامه أرسل مجده شعاعًا للعالم الذي يلعنه... وفي رقة مشاعره التي ولدها الألم يصلي إلى ربه من أجل الجنس البشري الذي نبذه" (٢١٩)، أما ليلنيلوم العلماني فيقول أن كل اليهود مقدسون سواء كانوا غير متدينين أم أرثوذكسيين (٧١). ويشير أحد المؤلفين اليهود الصهاينة إلى بن جوريون على أنه النبي المسلح، كما يشير شاختمان المؤرخ الصهيوني إلى جابوتنسكي على أنه نبي ومحارب، بل وأحيانا يصبح اللورد بالفور، صاحب الوعد المشهور والمعادي للسامية (باعترافه هو شخصيًا) يصبح هو الآخر نبيًا.

وإذا كنا من قبل بينا أن المقدسات اليهودية قومية وأن القومية اليهودية مقدسة، فإننا بعد هذا التحليل يمكننا أن نخطو خطوة للأمام ونقول أن المقدس هو القومي عند اليهود وأن القومي هو المقدس. هذا الخلط بين المطلق والنسبي يظهر بشكل صريح في كلمات بوبر التالية "إن تعاليم الدين اليهودي أتت من سيناء فهي تعاليم موسى (التي تلقاها من ربه)، أما روح هذا الدين فهي أقدم من سيناء، هب الروح التي جاءت إلى سيناء، فتسلمت هناك ما تسلمته من شرائع، هب أقدم من موسي، هب بطريكية (أي من عصر الباركة أو الأجداد الأقدمين)، هب روح يعقوب و"يعقوب" هنا ترمز إلى "إسرائيل" أي إلى الشعب اليهودي نفسه"(٦) أي أن إسرائيل الشعب تلقى وحيًا دينيًا في سيناء ولكن روح هذا الدين روح قوميته، إن

الوحي الذي تلقاه موسي من الرب لا يختلف عن روح الشعب القومية؛ أي أنه مثلما اختار الربُ الشعبَ اختار الشعبُ الربَّ، وحينما استمع الشعب لصوت الوحي فإنه لم يسمع سوى صوته المقدس القومي وحده، ولننظر الآن لأتفه الطقوس الدينية -مثل عادة الختان- في ضوء فهمنا لظاهرة التماذج بين المقدس والقومي: الختان أمر مقدس؛ لأنه مرتبط بالميثاق، ولكنه في الوقت ذاته قومي؛ لأنه عن طريقة سيتمكن اليهودي من الحفاظ على هويته، والقانون اليهودي مقدس؛ لأنه مرسل من الله ولكنه قومي؛ لأنه سيساعد اليهود على التميز، والمسيح المنتظر مرسل من الله ولكنه قومي؛ لأنه سيقود الشعب اليهودي للخلاص، وأرض الميعاد مقدسة ولكنها هي الأرض التي سيستوطن فيها الشعب، ونفس الظاهرة تتضح في أبطال اليهود؛ فموسى هو النبي ولكنه أيضًا قائد للجيش القومي، وكهنة موسى مقدسون ولكنهم أيضًا غزاة عنصريون لا يرحمون ، والملوك الغزاة الغزلون أمثال سليمان يدخلون في حوار مع الرب ويصلون إلي مصاف الأنبياء ، وقد لخص الحاخام الصهيوني كوك هذا الوضع الفريد بقوله "إن كل ممتلكات إسرائيل القومية، العزيزة على قلوب اليهود -الأرض واللغة والتاريخ والعادات- إن هي إلا أوعية لروح الرب" (٣٠٤).

وفكرة التشابه والتجانس بين الرب والشعب هي أساس فلسفة بوبر الوجودية الصهيونية، فهو يعتبر الإيمان الديني بمثابة حوار دائم بين الإنسان والله، يدخل الإنسان في علاقة أو حوار مع "الأنت" (ذات حية وفعالة أخرى) وليس مع "الهو" (موضوع ميت، مغلق على نفسه)، بمعنى أن الله يصبح حقيقة شبه ذاتية يمكن للذات البشرية الإحاطة بها، وليس حقيقة مثالية تحاول الذات الإنسانية الوصول إليها(٧)، بل إنه ليلغي وجود الذات اليهودية الفردية؛ لأن اليهودي لا وجود له إلا كعضو في مجموعة، والحوار لا يتم إلا بين الخالق والشعب ككل، وليس بين الخالق واليهودي كفرد وهكذا، فحسب التصور اليهودي القديم والصهيوني الحديث، يذوب الله في الشعب ويذوب الشعب في الله مكونين كلًّا واحدًا غير متمايز، لقد حلَّ المطلق في النسبي حلولًا كاملًا، كما ابتلع النسبي المطلق ابتلاعًا كاملًا، ولذلك يمكن لليهودي أن يعي الله بأن يعي نفسه، أو كما يقول الحاخام المحافظ شختر:"عندما وجدت إسرائيل نفسها وجدت إلهها، وعندما أضاعت إسرائيل نفسها أو عندما بدأت تعمل لمحو نفسها، كان من المؤكد أنها سوف تنكر إلهها" (٣٧٨)،

هذه الكلمات إن هي إلا تعبير مباشر عن موقف وحدة الوجود اليهودي أو البانشيزم اليهودية، وفلسفة البانشيزم هي فلسفة معادية للإنسان ومعادية للتاريخ والثورة، فحينما يحل الله في الأرض أو في تاريخ الأمة، أو عندما تبلغ الفكرة منتهاها فيصبح الله هو الأرض والأمة (وهذا هو ثالوث وحدة الوجود: الله والإنسان والطبيعة) فإن المطلق سيحل في النسبي ويمتزجان، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه وجوده كمثل أعلى، وهذا المثل الأعلى لازم لأي تمرد على الواقع ولأي تطور ديالكتيكي يتخطى الحركة الميكانيكية التي تكرر نفسها، ويتخطى التوازن والتقابل والتعادل الذين تتسم بهم "حوارية" بوبر الدائرية، فالمثل الأعلى هو ما يدفع الإنسان نحو محاولة تخطي واقعة المادي وتخطي حدود ذاته لتحقيق وجود أعلي وأفضل، وهو بهذا يتخطى البيئة والطبيعة وكل الأشياء ليعلي ذاته الإنسانية دون أن يذيبها فيما هو خارجي عنها أو أعلى منها، إن أي فلسفة إنسانية هيومانية لا بد وأن تؤمن بمقدرة الإنسان على التسامي (ولعل هذا هو ما عناه ماركس حينما أشار إلى أن الماركسية هي الترجمة المادية العلمانية للأساس الروحي للمسيحية)، والإيمان "بمقدرة الإنسان على التسامي" هو ما يشكل أساس الحوار بين الماركسيين والمسيحيين في أوربا، وهو إيمان يعني أن الإنسان ليس جسدًا محضًا أو كمًّا ميكانيكيًا غير قادر على ترويض الطبيعة وتصنيفها، أو عاجزًا عن "أنسنة" بيئته، كما أنه يعني أن وعي الإنسان "الذاتي" الخلاق يميزه عن بيئته "الموضوعية"، وأن عقله غير مساوٍ لجسده، وإلا لحقق نوعًا من التوازن يقضي على أي حركة وتقدم، وفلسفة وحدة الوجود اليهودية تساوي الإنسان (اليهودي) بالأرض التي يعيش عليها ويمتزج بتربتها أو بالمطلق "التاريخي" الجماعي الذي ينتمي إليه، أي أنها تساوي بين الإنسان وبين مطلق خارجه، بل وتجعل هذا المطلق يحتويه، وهي بهذا تنفي وجود الوعي المستقل لدى اليهودي وتحوله إلى مجرد أداة في يد المطلق، كما أنها تلغي تنوع الوجود اليهودي التاريخي النسبي وتحوله إلى وجود "يهودي" مطلق لا يمكن تصنيفه أو تسميته، وهي أيضًا تلغي الوجود الفردي لليهودي؛ لأن وجوده التاريخي المحسوس (الذي يميزه ككائن فردي له خصوصيته) يصبح شيئًا غير ذي بال لأنه جزء من كل مطلق مقدس، وهو وجود غير محدد ليست فيه درجات وليس فيه أعلي ولا أسفل أو صغير أو كبير، إن فلسفة وحدة الوجود تخلع القداسة على كل الأشياء اليهودية وهذا جوهر الوثنية.

ولكن وحدة الوجود اليهودية (الصهيونية) تأخذ صورة غير واضحة أو ظاهرة، فوحدة الوجود التقليدية التي تسود بين الشعوب الوثنية أو البدائية ترى أن القوة المقدسة العليا تحلُّ في العناصر الطبيعية المحيطة بها (الشمس أو الأرض أو التماثيل التي ترمز لها)، أما داخل إطار وحدة الوجود اليهودية فإن المطلق أو المقدس يحل في شيء غير ملموس هو الأمة اليهودية ذاتها: التاريخ والشعب والدولة، وحلول المطلق في أشياء غير ظاهرة يزيد من هلاميته ولا تحدده سيطرته، ولعل وحدة الوجود اليهودية قد أخذت هذا الشكل؛ لأن اليهود كانوا شعبًا متنقلًا مما اضطرهم إلى فصل المقدس عن العناصر الطبيعية الأزلية الثابتة، في الشيء المادي الوحيد الدائم معهم: الأمة اليهودية وتاريخها، ومما عمق هذا الاتجاه أن الدولة اليهودية لم تعمر طويلًا، وأن اليهود استمروا في التجول الجسدي والعاطفي طيلة تاريخهم، ولذلك فقد استمرت مقدساتهم في الارتباط بوجودهم هم أنفسهم، وليس بوثن خارجي عن أنفسهم: أي أن الوثن اليهودي القديم (والصهيوني الحديث) هو الذات اليهودية القومية، والذات القومية وثن؛ لأنها مطلق يعلو على الوجود الفردي ويلغيه بكل حدة وضراوة، ولهذا قد يمكننا القول أن عداوة العبرانيين لعناصر الطبيعة لم تكن ضربًا من الإنسانية أو التقدم، وإنما هي نوع من عبادة الذات أو الوثنية القومية التي لا تختلف كثيرًا في بنيتها عن الوثنية الطبيعية التي كانت سائدة في الشرق الأوسط قبل ظهور الأديان السماوية أو عن عبادة الأسلاف أو الأسرة المالكة التي لا تزال سائدة في بعض بلاد آسيا (ولعل مما له دلالته أن الديانة اليهودية القديمة قد تأثرت ببعض العبادات الآسيوية وأن فكرة المسيح المنتظر، المقدس القومي، فكرة بابلية الأصل).

ولعل الإيمان بوحدة الوجود اليهودية هو ما يفسر هذا الاهتمام اليهودي والصهيوني بكل ما هو يهودي بغض النظر عن قيمته الإنسانية أو الأخلاقية، كما أنه يفسر ما يسمى "بالتسامح" اليهودي تجاه الديانات الأخرى، فاليهود ليس عندهم أية نزعات تبشيرية، وقد فسَّر هذا على أساس أنه ضرب من التسامح ورحابة الرؤية، بينما تفسر النزعة التبشيرية عند المسلمين والمسيحيين على أنها ضرب من التعصب وضيق الأفق، ولكن التسامح اليهودي هو امتداد للإيمان بقداسة الأمة اليهودية التي يحل فيها الله، وهذه قداسة موروثة وحتمية لا يملك اليهودي قبولها أو رفضها، إذ أنها جزء من كيانه، ولذلك فليس في مقدوره نقلها للآخرين، فتسامحه هو في الواقع تعبير عن عدم اكتراثه بالآخرين وعن إحساسه باختلافه وتميزه

وأحيانًا تفوقه عليهم، أما "النزعة" التبشيرية الإسلامية والمسيحية، بغض النظر عن موقفنا منها وعن نتائجها العملية، فهي نابعة من الإيمان بأن كل الناس في إمكانهم الوصول إلى الخلاص عن طريق الإيمان بالله وعن طريق تنفيذ تعاليمه وقوانينه المرسلة (على عكس القانون اليهودي الذي لم يرسل إلا إلى اليهود وحدهم كجماعة قومية)، ولكن يجب أن نذكر أن هذا التسامح يتلاشى وعدم الاكتراث يختفي والتمركز على الذات القومية المقدسة يأخذ شكلًا عدوانيًا ضاريًا عندما يحاول الفلسطينيون الاستمرار في وجودهم التاريخي النسبي داخل أرض الميعاد المقدسة وعندما يمتلك الأنبياء القديسون طائرات الفانتوم (المطلقة أم النسبية)؟

إذًا فالتصور اليهودي القديم والصهيوني الحديث يري أن الشعب اليهودي شعب مقدس يحل الله فيه وفي أرضه، ولكن ماذا عن وجود اليهود الفعلي والمحدد داخل التاريخ والزمان؟ الشعب المقدس لا يخضع بأية حال للمقاييس العادية، فحياته هي تعبير خالص عن إرادة إلهه، وهذا التصور يختلف إلى حد كبير عن التصور الإسلامي والمسيحي لحياة الإنسان وتاريخه وهو تصور يرى أن الله قد ترك الإنسان حرًا في التاريخ ليحقق إرادته الإنسانية، ولكنه في الوقت ذاته لم يهجره كلية ولم يتركه يغرق في النسبي، أخبر الله الإنسان أنه سيثيبه ويعاقبه في اليوم الآخر "خارج التاريخ" والزمان الإنساني كلية، ولذلك فالإنسان حر في داخل التاريخ، ولكن الله طالبه باتباع القيم الأخلاقية وأرسل له الكتب السماوية ولذلك فالإنسان ليس ضائعًا يدور في حلقات مفرغة، واعمل لدنياك كأنك تعيش (في التاريخ النسبي) أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت (وتواجه المطلق) غدًا، هذه دعوة للإنسان ألا تستغرقه الأشياء النسبية والعادية والواقعية وأن يحاول تخطيها والتسامي عليها، ولكنها في الوقت نفسه تأكيد لحق الإنسان في أن يعيش داخل التاريخ حرًا ليحقق لنفسه أكبر قسط من السعادة، يقف الإنسان قدماه مغروستان في الأرض وعيونه شاخصة للسماء، وهذا هو سر عظمة الإنسان ومأساته، وهذا أيضًا هو سر وجوده الإنساني المُرَّكب، هذا الصراع صفي إلى حد كبير في التراث اليهودي، فحياة اليهودي لا تتميز بهذا التوتر؛ لأنه ليس إلا جزء من كل قومي مقدس، لا وجود تاريخي له، إذ أن التاريخ اليهودي لا وجود حقيقي له، فإله إسرائيل -كما بينا- لم يعلن عن نفسه في قوى الطبيعة وإنما في التاريخ، وفي التاريخ اليهودي على وجه الخصوص، وسفر الخروج يقدم تصورًا للتاريخ يتدخل الله فيه من آونة لأخرى، فالتاريخ اليهودي يبدأ بعقد الميثاق بين إبراهيم والله، ثم

يجدد هذا الميثاق بين الله وإسحق، ثم بين الله ويعقوب، فالأمة لم تأت للوجود من خلال تطور تاريخي، بل من خلال إرادة الله، وبذا تصبح إسرائيل أمة ومجتمعًا دينيًا في الوقت ذاته (٣٣٦) كما يقول بوبر، وهي لا تزال حتى وقتنا هذا شعبًا ومجتمعًا دينيًا (قوميًا - مقدسًا)، ويفرق بوبر بين "التاريخ" (التجربة التي تعيشها الأمم على حد قوله) والوحي (وهو التجارب الهامة الخالصة التي يعيشها الأفراد)، وحينما يتحول الوحي إلى أفكار تفهمها الجماهير وتؤمن بها فإنها تصبح عقائد، هذا هو الوضع بالنسبة لسائر الأمم، أما بالنسبة لإسرائيل فهناك تطابق بين الوحي والعقيدة والتاريخ: "إن إسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة كشعب، ليس النبي وحده هو الذي تشمله عملية الوحي بل المجتمع ككل، فمجتمع إسرائيل يعيش التاريخ والوحي كظاهرة واحدة، التاريخ كوحي، والوحي كتاريخ" (٣٣١) (النسبي كمطلق والمطلق كنسبي، المقدس كقومي والقومي كمقدس، الذات كموضوع والموضوع كذات، وكلها تندمج في دائرة "الواحدة" المطلق). إن حلول المطلق في اليهود حوَّلهم إلى أنبياء، وحوَّل التاريخ اليهودي إلى وحي مستمر، ولذا فاليهود حسب تصور بوبر الصوفي "أمة تحمل وحيًا (إلهيًا) (٣٣٦) عبر تاريخها المقدس، الذي لم يكن سوى "صراع لا ينتهي من أجل وضع مُثُل الأنبياء موضع التطبيق" (٢١٧) كما يقول سيركين الاشتراكي.

وماذا عن وجود اليهود الحقيقي التاريخي، بل وفي مكان مثل الجتو؟ هذا الوجود يصبح كيانًا "مؤقتًا واصطناعيًا" (على حد قول أحاد هعام) ليحفظ الأمة وروحها حتى يحين الوقت الذي "يشاء الله فيه إعادة شعبه إلى أرضه وحريته" (١٥١).

إن الوجود التاريخي البائس هو مجرد الجسد الذي تحل فيه الروح للتعبير المؤقت عن نفسها. (وتفسير أحاد هعام لهذا الوجود التاريخي يشبه من بعض النواحي "نظرية البقية" اليهودية التي يشير إليها الأستاذ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي في كتابه القيم أصول الصهيونية في الدين اليهودي ص٦٢، وهي نظرية كان ولا شك لها أكبر الأثر على تفكير الصهاينة النخبوي الفاشي).

يصبح التاريخ اليهودي إذن هو النقطة التي يلتقي فيها الخالق مع الشعب، ويقول بعض فلاسفة التاريخ أن اليهود هم أول من اكتشف فكرة التطور التي هي عماد الوعي التاريخي (على عكس الإغريق القدامى الذين كانوا يرون التاريخ بشكل فلسفي هندسي)، وأن حلول الله اليهودي في التاريخ جعله يأخذ شكل خط مستقيم، يتحرك نحو هدف أعلى وليس شكلًا دائريًا هندسيًا يتحرك دون غاية، ولكن هل

انطوى التصور اليهودي على فكرة التقدم بالفعل؟ أم أن ديالكتيك هذا التصور ديالكتيك زائف يعطي إحساسًا زائفًا بالحركة تخفي جمود وسكون المطلقات؟ كل الظواهر التاريخية حسب التصور اليهودي قد قررت حركتها حسب خطة ربانية مسبقة وضعت قبل بدء التاريخ، بل أن تدخل الله المستمر والعلني هو تأكيد بأن التاريخ يُدفع من الخارج وأنه لا مجال للإرادة البشرية فيه، إن التاريخ اليهودي بدأ من مطلق (الميثاق مع إبراهيم) يقطعه المطلق من آونة لأخرى (الميثاق مع يعقوب، ظهور هرتزل، انتصار إسرائيل عام ١٩٦٧) وينتهي بمطلق: ظهور المسيح المنتظر أو العصر المسيحاني (حسب الرواية العلمانية التقدمية) وتدخل الله المستمر في التاريخ هو ما يكسبه معنى ويضفي على فوضاه اللامتناهية شكلًا: " أن يد الله لم تَقُد هذا الشعب خلال أربعة آلاف عام وعبر آلام الجحيم، ولم تحضره مرة أخرى إلى أرضه للمرة الثالثة (في العصر الحديث) دون أي معنى" (١٨٠) كما يقول بياليك.

إن مسار التاريخ بهذا المعنى يصبح له هدف واضح، ويتجسد هذا الهدف في فكرة المسيح المنتظر الذي هو نهاية التاريخ، إن تقاليد الإيمان بالخلاص تؤكد "وجود النور الروحاني الذي يمكن اليهودي من أن يفهم نفسه ويدرك معنى جميع أحداث تاريخه حتى الجيل الأخير الذي ينتظر الخلاص والذي بات في متناول يده" (٣٠٥)، إن مسار التاريخ يصبح واضحًا، له بدايته ونهايته، تمامًا مثل أي مسرحية، بل وأي ميلودراما؛ لأن الأخيار أخيار والأشرار يبلغون قمة الشر، كما أنها كأي ميلودراما لها نهاية سعيدة يجازى فيها من أخطأ ويثاب فيها من لم يحد عن الطريق السوي، إن "موسى وإيليا هما جزء من عملية الخلاص هذه، أحدهما يمثل بدايتها والآخر قمتها، ولذلك فكلاهما يحقق هدفها"(٣٠٠)، وأسطورة المسيح المنتظر قد تنطوي على فكرة التقدم نحو هدف أعلى إلا أنها على الرغم من ذلك لا تاريخية؛ لأنها تفترض ثبات النقطة التي يتحرك نحوها التاريخ، ولأنها تفترض عدم جدوى الإرادة الإنسانية، فالعصر المسيحاني سيأتي عن طريق تدخل الله، إن فكرة التقدم والتغير والتبدل ، التي هي عماد التاريخ والوعي التاريخي، تستند إلى فكرة النمو التدريجي للوعي الإنساني عن طريق التجريب والمحاولة الواعيين وعن طريق الخطأ والنجاح، وكلما نما هذا الوعي وكلما ازداد نجاح الإنسان تحرر من الطبيعة ومن قانون الضرورة وتحكم فيهما، ولذلك يكون الهدف المسيحاني الذي يتسم بالثبات (رغم كل نبله وسموه) والذي يلغي الوعي الإنساني (رغم كل

الفوائد الجمة التي قد تعود علينا من ذلك) هدفًا هو في صميمه معادٍ لفكرة التقدم؛ لأن الإنسان التاريخي إنسان واعٍ متطور يبدل ويحور في هدفه بمقدار زيادة نموه وبمقدار نجاحه وفشله وحسبما تمليه عليه ظروفه المحسوسة(٨).

نعم! إن فكرة المسيح المُخلِّص قد تعطي التاريخ اليهودي معنى، ولكنه معنى مطلق يلغي أي وجود نسبي له، كما يلغي تنوعه وصراعاته؛ لأن التاريخ يتحرك دائمًا وأبدًا، مدفوعًا من الخارج، نحو نقطة ثابتة هي النهاية التي لا يكون بعدها أي تطور، إن التاريخ يتقدم نحو "نهاية سعيدة" مقررة ومحسوبة، وبذا يصبح التاريخ خاليًا من إمكانيات الانتصار والهزيمة، فالانتصار هو انتصار اليد المحركة أما الهزيمة فهي دائمًا مؤقتة، ولهذا السبب لا تسمع إسرائيل سوى "لحن الخلاص"، ولا تصغي إلا إلى تموجات أعمالها التي ستنتهي فقط بقدوم أيام المسيح المنتظر" (٣٠٠)، فالخلاص متواصل، والخلاص من مصر (في أول الأيام) والخلاص النهائي (في آخرها) هما جزء من عملية واحدة تقوم بها "اليد القوية والذراع الممدودة، إنها عملية بدأت في مصر ولا تزال واضحة في التاريخ كله"، إن التاريخ اليهودي يصبح تاريخ مثاليات مطلقة وكائنات ميكانيكية مقدسة متحركة، إنه ليس تاريخ لبشر محسوسين يعيشون في فرح وحزن معرضين للنصر والهزيمة.

ولعل هذا يفسر التناقض الواضح في التصور اليهودي للخالق، فهو إله قومي شخصي، إلا أنه في الوقت ذاته إله رهيب يرهق عباده ويحرمهم حريتهم الإنسانية ولذلك فذكر اسمه أو حتى كتابته شيء محرم ، ولا يزال بعض اليهود الأرثوذكس يُحرِّمون كتابة اسم الله وحينما يريدون الإشارة له فإنهم يكتبون رمزًا جبريًا خاليًا من أي إيحاءات مثل علامة × أو شرطة –، إن الرمز الجبري هو وحده قادر على الإشارة إلى المطلق الذي يعلو تمامًا على الإنسان ويلغيه.

وماذا عن تاريخ الجوييم؟ هل يتسم تاريخهم بالتنوع والتناقض؟ نعم، ولكن هذا التنوع وذلك الصراع غير مهمين لليهود، بل إنهما غير حقيقيين في نهاية الأمر، فالتاريخ الإنساني كله يدور حول الأمة اليهودية التي تقف في وسطه تجسد فكرة وجود الله "حجر الزاوية في حركة التاريخ نحو الخلاص" (٣٣٣).

كما يقول بوبر، وكما أن المسيح المنتظر أساسي لإضفاء معنى على التاريخ اليهودي، فوجود اليهود (أمة المسحاء المخلصين) داخل التاريخ الإنساني أساسي لإضفاء معنى عليه هو الآخر، إن تأمين نظام العالم الذي يترنح بين عواصف الحروب الدموية يتطلب بناء الدولة اليهودية، هذا وبناء كيان الشعب وإظهار روحه

هما عملية واحدة لا يمكن الاستغناء عنها لإعادة بناء العالم المهتز الذي ينتظر القوة العليا والموحدة الموجودة في تجمع إسرائيل المقدس"(٢٩٧)، الأرض تميد والدنيا تهتز والفوضى تعم؛ لأن الأمة المقدسة ليست في مركز التاريخ، وهس العلماني له رأي مماثل شرحه في كتابه روما والقدس (ص٣١-٣٢): إن تاريخ الإنسانية أصبح مقدسا من خلال اليهودية، وأعني هنا أن التاريخ أصبح تطورًا عضويًا وموحدًا يعود في أصله إلى حب الأسرة" (٣١)، بل إن سيركين الاشتراكي يرى "أن الانتحاء القومي اليهودي مأساة رهيبة لليهود أنفسهم، كما ستكون الحقبة التي تقع فيها هذه الواقعة أفجع ما سيعرفه تاريخ البشرية"؛ لأن القضاء على اليهود لا يعني سوي القضاء على البشرية"(٢٢٨).

تقف الأمة برسالتها الأزلية الثابتة في مركز التاريخ متخطية كل حدوده ومجسدة المُثُل العليا الربانية، ومرة أخرى يستمد التاريخ معناه من وجود المطلق في مركزه أو في نهايته، ومرة أخرى نعود للدائرة المنغلقة التي لا علاقة لها بأي تاريخ محسوس أو واقع حي.

ومما يجدر ذكره؛ أن الدائرة اليهودية المغلقة ليست روحية وتاريخية وحسب بل وجغرافية أيضًا؛ فإله اليهود القومي مرتبط بالشعب وبالأرض الفلسطينية، والفكر اليهودي –الصهيوني- يدور حول أرض الميعاد التي يجب أن يعود لها الشعب الذي هو "حجر زاوية الخلاص"، بل أن التصور اليهودي القديم يعطي أرض الميعاد مكانة تشبه مكانة المسيح المخلِّص بالنسبة لتاريخ اليهود ومكانة اليهود بالنسبة لتاريخ العالم، فأرض الميعاد حسب التصور اليهودي هي مركز الدنيا لأنها توجد في مركز العالم، فأورشليم تقع في وسط أرض الميعاد، والهيكل يقع وسط أورشليم، وقدس الأقداس في وسط الهيكل، وتابوت العهد في وسط قدس الأقداس، وحجر الأساس أمام تابوت العهد وهذه النقطة هي مركز العالم، إنها المسيح المنتظر الجغرافي(٩).

إن اليهود ليسوا مقدسين فحسب بل إنهم يقفون كالدائرة المغلقة على نفسها وسط التاريخ والجغرافيا!.

(٣) : ديالكتيك الصهيونية الزائف:

نادت الصهيونية بحل المشكلة اليهودية عن طريق تهجير "شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب"، ويتصور الصهاينة أنهم بهذا نجحوا في تقديم رؤية جديدة للواقع تجمع بين الشيء ونقيضه وتتخطاهما، إنها رؤية -في تصورهم- تتخطى كلًا من معاداة السامية التي ترفض اليهود رفضًا كاملًا وتحاول تصفيتهم حضاريًا بل وجسديًا، والاندماجية الليبرالية التي تحاول القضاء عليهم بطريقة إنسانية. تدَّعي الصهيونية أنها تقدم الحل النموذجي المركب، فهي ستخلص العالم من اليهود (وبذا تُرضي معادي السامية) عن طريق تجميع اليهود في دولة يهودية مؤكدة بذلك كيانهم وتراثهم اليهوديين (الأمر الذي يُثلج صدور المؤمنين)، ولكن الدولة اليهودية ستكون دولة قومية علمانية لا تختلف عن الدول الأخرى وبذا يمكنها أن "تندمج" في المجتمع الدولي (الأمر الذي يرضي الليبراليين العلمانيين)(١٠).

وهذا البرنامج السياسي الذي يرضي جميع الأطراف قد شكَّل أساسًا متينًا للتحالف بين القطاعين الأساسيين للأقليات اليهودية في العالم؛ ألا وهما قطاع اليهود المتدينين في الشرق الذين يودون الحفاظ علي يهوديتهم، وقطاع اليهود الليبراليين في الغرب الذين يودون الإبقاء علي اندماجهم الذي تهدده الهجرة من الشرق، كما أن هذا البرنامج قد جعل من الممكن أن تتحالف جماهير البرجوازية الصغيرة اليهودية مع العناصر اليهودية الاشتراكية الثورية (ولا تزال هذه هي إحدى السمات الأساسية للحياة السياسية في إسرائيل).

ولكن البرنامج السياسي الذي يُرضي "جميع" الأطراف ويرضي العدو والصديق بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية أو حتى نواياهم الإنسانية، لا بد وأن يكون برنامجًا سحريًا قادرًا على حل التناقضات، كما أن المؤمنين بهذا البرنامج لا بد وأن يكونوا على قدر كبير من التسامح وطيبة القلب حتى يقبلوا وجهة نظر عدوهم أو على الأقل يجب أن يُسهم البرنامج العجائبي بسحره.

ولكن البرنامج الصهيوني لا سحر له ولا قداسة، فقد حل الصهاينة وأتباعهم كل التناقضات بتجاهلها؛ وذلك باتخاذ موقف هيجيلي مثالي من الواقع والتاريخ والرؤية الهيجلية المثالية للتاريخ تفترض أن ثمة فكرة مطلقة لا وجود مادي أو نسبي لها، تحرك كل الظواهر، وتكون بمثابة المحرك الأول (والأخير) للتاريخ، وتسبغ عليه معنى عقلانيًا وتبين "الحقيقي" من الزائف، ولأن الحقيقي الوحيد هو النهائي

المطلق فإن هذه الرؤية الهيجيلية تفترض أن كل المتناقضات في جوهرها "غير حقيقي"؛ لأنها مهما كان عمقها فما هي إلا حلقة في سلسلة ضخمة تؤدي إلى هذا المطلق الخالي من التناقض: الفكرة المطلقة أو الدولة البروسية أو اليهودية!
والحيلة الهيجيلية المثالية لحل المشاكل تتلخص في رؤية التاريخ من وجهة نظر نهايته المطلقة، فلا يرى الإنسان إلا الفكرة المطلقة الثابتة المتجسدة في كل التفاصيل المتغيرة، ولكنه بعد قليل لا يرى إلا "الفكرة" نفسها وينسى التفاصيل؛ لأن التفاصيل المحسوسة ستصبح تجسيدات متساوية في الدرجة والقيمة، ليس فيها ما يميز الواحدة عن الأخرى، وحيث أن هذه الفكرة المطلقة غير المحسوسة أو معروفة (إلا لله وحده عزَّ وجل) فإنها تتحول إلى فكرة ذاتية يدعي الزعيم النبي (هتلر أو بن جوريون) معرفتها ويحاول قصارى جهده فرضها على الواقع المحسوس غير الحقيقي، وهكذا ينغلق الجدل الهيجلي على نفسه أو ينفتح على المطلق الذاتي وهذا ضرب من الانغلاق هو الآخر (على عكس الجدل الماركسي المنفتح على الواقع التاريخي المتطور الحي، ولذلك الخلافة تتغير هي الأخرى بتفاعلها مع الموضوع الحي، فتسمو عليه وتتخطاه؛ لأن من وجهة نظر ماركسية إنسانية يجب ألا ننظر إلى الواقع بميكروسكوب النسبي فنغرق في التفاصيل لا ولا من خلال تلسكوب المطلق فلا نرى إلا فكرة لا ملامح لها ولا قسمات).
وقد أثّرت الرؤية الهيجيلية المثالية في الفكر اليهودي الحديث وفي الفكر الصهيوني بشكل خاص (وذلك لتماثل بنية الهيجيلية المثالية ببنية وحدة الوجود) فنحمان كرو خمال (١٧٨٥-١٨٤٠) وهو من أوائل فلاسفة القومية اليهودية لم يجد سوى الجدل الهيجيلي ليبني عليه نظريته في التاريخ اليهودي، ففي كتابه دليل الحائرين هذه الأيام يعرض نظريته القائلة بأن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم، فكل الأمم تمر بدورات نمو ونضوج واضمحلال ثم موت، أما اليهود فلا يمرون بمثل هذه الدورات إذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى ويبدأون دورة أخرى، ويفسر كرو خمال مقدرة اليهود على التغلب على الموت والاضمحلال بأن اليهودية روح سرمدية تعرف سر تجديد الحياة ذاتها فبينما سيطر على الأمم الأخرى وجودها الجسدي أو أرضها القومية سيطر على اليهود "روح الجماعة" وحدها، بل إن كرو خمال يرى أن "روح هيجل المطلقة" ليست سوى إله إسرائيل الذي يرتبط به الشعب الإسرائيلي برباط وثيق، وتحقيق إرادة هذا الإله أو الروح المطلقة هو للشعب اليهودي بمثابة المثل الأعلى بل والمصير المحتوم، وبذا تصبح الأمة

اليهودية ليست مجرد ظاهرة حضارية منعزلة عن كل الحضارات القومية الأخرى، بل على العكس تصبح وثيقة الصلة بها بل وتحتويها كلها في وحدة عضوية منسجمة.

ونحمان كروخمال بهيجيليته العضوية المثالية لم يبتعد كثيرًا عن الفكر اليهودي القديم بتصوره المسيحاني للتاريخ وبرؤيته للشعب المختار في مركز التاريخ.

هذه الهيجيلة تتضح أيضًا في فلسفة المفكر الصهيوني موسى هس في تحليله لما يسميه "بسبت" للتاريخ، والسبت الطبيعي ثم بدأ التاريخ، خلقت الطبيعة كاملة ثابتة أما الإنسان فإنه لا يزال أمامه مجال للتطور وهو تطور سيصل إلى قمته ونهايته في "سبت" التاريخ، وذلك بقدوم المسيح المنتظر، في هذه النقطة في الزمان ستنغلق الدائرة ويتحقق المطلق "ويصل التاريخ كالطبيعة وعالم التاريخ على حد سواء"، إن عالم التاريخ مثل عالم الطبيعة "له نهاية وذروة يصل إليها ، وأي اختلاف بين قوانين التاريخ والطبيعة هو نتاج مفاهيم ذاتية وناجم عن الإحاطة "بالقوانين العظيمة الشاملة المقدسة" (٣٥).

وعن الفشل في فهم أن تطور الإنسانية التاريخي ليس مجرد "تقدم" لا نهاية له ولا تحكمه قوانين ولا تحده حدود" (٣٥) وهس يؤكد أهمية تصور النهاية المسيحانية للتاريخ (وهذا هو جوهر الرؤية الهيجيلية للتاريخ، على عكس التصور الماركسي الذي يؤمن بوجود قوانين تحكم مسار التاريخ إلا أنه لا يضع أية نهاية ثابتة له؛ لأن المجتمع الشيوعي لا بد وأن يتخطى نفسه، بل إن ماركس رفض التنبؤ بصورة هذا المجتمع وإلا وقع في هوة التصورات المسيحانية المثالية).

والصهاينة في رؤيتهم للتاريخ وللواقع المادي لا يرون شيئا سوى فكرتهم المطلقة: العودة إلى أرض الميعاد لتأسيس الدولة اليهودية فيها، وما تاريخ اليهود إلا تعبير عن هذه الرغبة العارمة في العودة، إن التاريخ اليهودي تعبير عن هذا المطلق الذي لا يقبل النقاش؛ (لأن الحق في العودة إما أن يستند إلى وعد أسطوري تلقاه اليهود في أول الأيام أو إلى رغبة سيكولوجية تعتمل في نفوس اليهود، وكلا الوعد الأسطوري والرغبة السيكولوجية، حينما تتحولان إلى برنامج سياسي لا يمكن مناقشتهما بشكل عقلاني)، لذلك فحينما يشير اليهود إلى حقوقهم "التاريخية" أو إلى "حدود" إسرائيل "التاريخية" فإننا يجب أن نضع في اعتبارنا دائمًا أنهم لا يشيرون إلى أي واقع تاريخي محسوس، بل إنهم يشيرون إلى تصورات مسيحانية بخصوص هذه الحدود، ولذا فالحقوق والحدود "التاريخية" هي حقوق وحدود

مقدسة ومطلقة أو حقوق وحدود "ذاتية" لا يمكن لأحد تقريرها أو التعرف عليها سوى الصهاينة، ولأن الصهاينة لا ينظرون إلى الواقع إلا من خلال تلسكوب المطلق الصهيوني، فقد كان من اليسيرعليهم تجاهل النسبي والتاريخي والمحسوس، وأن يتقبلوا بكل سهولة شعار "أرض بلا شعب، وشعب بلا أرض"؛ لأنه شعار يتسم بالاتساق الهندسي الدائري المجرد، هذا الشعار الذي لا يزال بعض الصهاينة يرددونه حتى الآن يتجاهل عناصر تاريخية محسوسة عديدة، فهو أولًا قد حوّل الفلسطين إلى مكان مهجور (أو مطلق غير تاريخي) وحكم على الشعب الفلسطيني بالزوال، كما أنه حوَّل الأقليات اليهودية في الدياسبورا إلى مطلق آخر يسمى "الشعب اليهودي" وحكم عليه بأنه في حالة بؤس شديدة وفي حالة تطلع ورغبة دائمين للعودة إلى أرض الميعاد (رغم أنه حوالي نصف يهود العالم يعيشون في أرض الميعاد الأمريكية ولا يريدون التزحزح منها).

لو فعل الصهاينة غير ذلك لتحدى الواقع التاريخي الحي والمتنوع في فلسطين والدياسبورا تناسق جدلهم الهندسي، ولعل قصة ماكس نوردو -الزعيم الصهيوني وصديق هرتزل- الذي لم يسمع قد عن وجود الفلسطينيين إلا في المؤتمر الصهيوني الأول، والذي اندفع لهرتزل معلنا استنكاره لعدم إخباره بهذه الحقيقة (الجوهرية أم الفرعية؟) أقول لعل هذه القصة خير دليل على زيف جدلية الصهيونية ومثاليتها؛ لأن الجدل الحقيقة هو الذي يأخذ كل العناصر الأساسية في الاعتبار ويرى تفاعلها داخل إطار تاريخي لقد حولت الصهيونية التاريخ اليهودي والواقع الذي تتعامل معه بكل ترتيباته ونتوئه إلى ما يشبه القطار الذي يسير على قضبان مستوية من الشعارات والأساطير البسيطة إلى محطة الخلاص.

إن لينبلوم لا يرى أمامه إلا طريقًا مستقيمًا مؤكدًا يقود إلى الخلاص" (٧٠) وهرتزل يشبّه الحركة الصهيونية بعد تنظيمها بالقاطرة الكبيرة تحمل مسافرين وبضائع" (١٠٢) إلى محطة أرض الميعاد، ومن المناسب أن نذكر أن هرتزل طيّب خاطر نوردو وأخبره أن كل سيسوى فيما بعد (كيف)" وأن نوردو لم يقتله الندم بسبب جهله المطلق، بل استمر صهيونيا يحتمي بتلسكوب المطلق حتى يوم وفاته (النهاية السعيدة دائمًا).

ويبدو أن لويس دمبيتزبرانديس (١٨٥٦-١٩٤١) القاضي الأميركي والزعيم الصهيوني قد بلغت به الليبرالية وطيبة القلب إلى درجة أنه رأى "النهاية السعيدة" متحققة في أرض الميعاد عام ١٩١٥: ففي مقالة "المسألة اليهودية وكيفية حلها"

يؤكد لنا بكل براءة أنه "ليس هناك مجرمون يهود في المستعمرات اليهودية في فلسطين؛ لأن كل واحد منهم كبيرا كان أم صغيرا يشعر بمجد شعبه وبواجبه لحمل مُثُله العليا، إن يهود فلسطين الجدد ينشأون علماء بدلا من مجرمين" (٣٩١).

في أركاديا الصهيونية، في أرض اللبن والعسل، يجلس الرعاة مع الراعيات يعزفون على الناي بينما ترعى الحملان بنفسها، لقد ضغط المثل الأعلى على الجميع فتجسّد الآن وهنا! (وإن كان برانديز لا ينسى بطبيعة الحال أن يذكر الرعاة المسلحين الذي يقضون الليل يحرسون أركاديا المسلحة ضد "قطّاع الطرق ومسببي أعمال الشغب" ضد الأحلام الرعوية الهيجيلية!).

والنظر من خلال تلسكوب المطلق هو الحيلة الهيجيلية التي استخدمها بوبر لتبرير الاستيلاء الصهيوني على الأرض الفلسطينية (٣٤٠) فحينما صرّح غاندي بأن "فلسطين هي ملك العرب" كتب بوبر خطابا بدأه بالابتعاد عن الواقع المحسوس عن طريق العودة إلى الماضي السحيق حينما استولى العرب على هذه الأرض عن طريق الغزو، وتساءل بوبر عما إذا كان غاندي يقصد أن الاستيطان عن طريق الغزو يبرر حق ملكية فلسطين، وبوبر بذلك يتناسى الوجود التاريخي المحسوس للفلسطينيين الذي لا يمكن بأية حال مساواته بالوجود الصهيوني في فلسطين آنذاك، ثم يركز بوبر التلسكوب مرة أخرى ويبتعد عن الماضي السحيق إلى المطلق ويقرر أن أي إنسان غير قادر على القول "هذه الأرض ملكي" فالأرض المفتوحة في رأيه الصوفي"قد أعيرت إلى الفاتح الذي أقام عليها وإن الله بانتظار ما يفعل بها" (٣٤١).

إن رؤية التاريخ من وجهة نظر المطلق قد ساوت بين الوجود العربي والوجود الصهيوني في فلسطين، فمن وجهة نظر المطلق تتساوى كل الأشياء بل إن أي وجود إنساني (عربي كان أم صهيونيا) أُلغي تماما، وأصبح التاريخ تجسيدا لإرادة إله إسرائيل الهيجيلي (وهم طبعا أقدر على فهم أفكاره المطلقة) وما علينا إلا تقبل تجسيدات هذه الفكرة المطلقة الذاتية (وقد سلَّط أيخمان تلسكوب المطلق على يهود أوربا فذابوا واختفوا، وحققت الدولة النازية اتساقها وانسجامها الآري الكامل الذي لا تشوبه شائبة يهودية واحدة، لقد أصبح التاريخ في كمال الطبيعة كلا عضويا دائريا ثابتا يبعث عن الفزع والغثيان).

وانشغال الصهاينة بالمطلق وبالأزلية دون التفاصيل يفسر أنه فلم تزخر كتاباتهم برموز الثبات، هناك بطبيعة الحال جبل صهيون ذاته فالذي سميت الحركة باسمه،

وهو رمز السكون والتمركز، وهناك الارتباط الصهيوني الصلب بأرض الميعاد صرة الأرض، ويشير إعلان استقلال الدولة اليهودية إلى "صخرة إسرائيل" التي يقف في وسطها جسم صلب آخر: حائط المبكى.

واليهود يصابون بمرض الثبات هذا في كتابات الصهاينة هم فيقون داخل التاريخ "كحجر زاوية" على حد قول بوبر (٣٣٣)، ويشير هس إلى "النواة الحية داخل الشعب" (٢٥) أما بياليك فيتحدث عن الجامعة العبرية على أنها "أول وتد في عملية تشييد القدس العالية ثبت اليوم وللأبد" (١٧٣).

وبيرديشفسكي الرومانتيكي المتمرد على عناصر الموت في التراث اليهودي يرفض الثبات ويدعو اليهود ألا يكونوا بعد الآن "ألواحًا يكتب عليها الكتب"، ولكنه حينما يصف حياة اليهود المستقبلة كما يتخيلها فإنه يستخدم صورة أخرى للثبات؛ لأن اليهود بعد عودتهم "سيحيون ويقفون في ثبات" (١٨٤) (الهرب من التراث المميت إلى الطبيعة الأزلية المميتة).

وإلى جانب رموز الثبات هذه ثمة مجموعة من الإشارات التي قد توحي بالحركة والحياة وهي صور الينبوع والمنار والمشعل، فسيركين يقرر أن اليهود كانوا حملة "مشعل الليبرالية" (٢٢٥) وغوردون يتحدث عن فلسطين على أنها "ينبوع" حياة اليهود و"البقعة المركزية" فيها، (٣٠٣) وإلى الينبوع الأزلي للروح اليهودية (٢٩٥)

والرموز السابقة رغم أنها قد توحي بالحركة إلا أنها هي أيضًا رموز ثبات ولكنها تختلف عن سابقتها في أنها ترمز إلى عدم التحدد في الوقت ذاته، فالينبوع يعطي ماءه ولكن دون أن يتغير، تمام كالمشعب ولكن إلى جانب هذا يتسم الينبوع والمشعل بأنهما لا حدود لهما؛ لأننا لا يمكننا أن نتصرف على حدود التي تفصل بين المشعل ووضوئه أو بين الينبوع ومائه، كما أن مياه الينبوع تفيض فتغطي ما يحيطها، والمشعل يشع ضوؤه فيغمر ما حوله.

ولكن أهم رموز في الكتابات الصهيونية هي الرموز التي تعبر عن رغبة اليهود في الاحتماء بالدائرة المغلقة، مثل رمز الهيكل الذي يحتمي به اليهود روحيًا فأرض إسرائيل هي هيكل يحتمي به جوهر الأمة الروحي (٢٠٦) والدين اليهودي هو الآخر هيكل لليهود (٢٠٩) إنه كالجدار المنيع الذي يحمي اليهود، وفلسطين كالمرفأ انطلقت منه السفن (اليهودية) ويجب أن تعود إليه حتى لا تلمسها الأمواج مرة أخرى (٣٦٨) ويشبه شيختر اليهودية بعد البعث القومي ببرج القوة والوحدة الذي

سيحمي المهاجرين لأرض الميعاد ويهود الدياسبورا (٣٧٧) ويشبه بباليك المدارس الدينية اليهودية بالقلاع التي يلجأ المخابئ وكنز أمة الروح هو التوراة (٢٩٨)

ولكن ماذا لو قُدِر لهذا الدائرة أن تنفتح (عن طريق الهسكلاه أو الانعتاق مثلا) هنا يرى الصهاينة أنه لا بد من زيادة "الموانع الذاتية أوالقيود" حتى يحتفظ اليهودي بتميزهم وانفراديتهم، وكذلك يجب الحفاظ على جميع الحدود التي تفصل بين اليهود والجوييم (٢١١)، وتصل هذه الانغلاقية إلى قيمتها حينما تدعو المجلة اليهودية الألمانية "جوديش رندشاو" كل اليهود أن "يلبسوا الشارة الصفراء بكل فخر" وذلك في عددها الصادر يوم أول أبريل ١٩٣٣ بعد أن بدأت المقاطعة النازية ضد اليهود، وهذه النجمة الصفراء كان على اليهود ارتداؤها إذا خرجوا من الجتو حتى يتسنى للآخرين التعرف عليه (وقد طلبت الصحيفة من اليهود ارتداء الشارة قبل أن يفعل النازيون ذلك بستة أعوام).

ويعلق المفكر الصهيوني الأمريكي لودفيغ ليفيسون (١٨٨٣-١٩٩٥) على هذه الواقعة بقوله: "يجب علينا أن نفعل ذلك دائمًا وفي كل مكان بل وأن نفعل أكثر من ذلك، إن الشارة الصفراء يجب أن تخترق ثنايا الثوب حيث حاكتها يد معادية عليه حتى تصل إلى القلب وتتحد معه وأن تملأه كلية وبشكل مطلق لدرجة لا يستطيع أحد معها التفريق بين الشارة الصفراء وقلب اليهودي" (٣٦٢))ولكن هل ندم النبي المزيف فيليسون مثلما ندم روبرت ولتش مؤلف شعار النجمة الصفراء بعدما رأى الحوادث التي لحقت طرحه للشعار)، إن صور الثبات والتمركز هي تعبير عن وجدان الصهاينة المعادي للتاريخ والواقع والحياة والذي يعيش داخل دائرة الجدل المثالي المزيف.

(٤) : التجريبية الانتقائية:

وديالكتيك الصهيونية الزائف هو تعبير عن نتيجة لمحاولة الصهاينة تحويل التاريخ إلى أسطورة والواقع إلى مثال (كما فعل اليهود القدامى في تاريخهم).

ويستند هذا الديالكتيك إلى ما يمكن تسميته بالتجريبية الانتقائية فالمفكر الصهيوني عادة ما يعطي قارئه إحساسا بأنه دائم الرجوع إلى الواقع، وبأنه خلص إلى نتائجه بعد تمحيص دقيق لكل عناصره، ولكنه في واقع الأمر يقترب من الواقع مسلحا بكل غيبياته الصهيونية المثالية، ليبحث عن العناصر التي تدعم رؤيته وينتقيها، متجاهلا ما عداها، ولهذا السبب لا تؤدي عملية دراسة الواقع أو التاريخ إلى أي تعمق إنساني وإنما ينتج عنها تحسين في الأساليب الدعائية (كما هو الحال في "علم" الآثار الإسرائيلي الذي يستخدم الاكتشافات الإسرائيلية التي تتم بشكل "علمي" لتبرير الرؤى الصهيونية الصوفية) والتجريبية الانتقائية هي وسيلة الغيبية الصهيونية لإضفاء طابع العلمانية على نفسها، فالصهيوني العلماني مضطر للجوء إلى المنهج التجريبي لأنه كما يزعم علمي، ولأنه لا بد له من أن يتعامل مع الواقع حتى لو رفض هذا الواقع على المستوى الفكري، ولكن الصهيوني لا يملك بأي حال أن يسلم بوجود كل عناصر الواقع المختلفة (بما في ذلك عروبة فلسطين وتنوع يهود الدياسبورا)؛ لأن هذا يناقض التبسيطات الأسطورية التي يؤمن بها إيمانًا صوفيًا أعمى، والانتقائية هي وسيلته المثالية لموازنة وضبط التجريبية حتى لا تصل هذه التجريبية إلى درجة تجعل الواقع يتحدى الأسطورة.

ويجب أن نشير إلى أن المفكرين الصهاينة (بما في ذلك أحاد هعام) هم نتاج المجتمع الأوربي العلماني التجريبي، ولذلك كان من الطبيعي أن يترك المنطق التجريبي أثره عليهم، ولكن هذا الأثر لا يظهر على شكل رؤية علمية بل يأخذ شكل رؤية عملية ضيقة إلى أبعد الحدود بمعنى أن استخدامهم للتجريب استخدام تكتيكي محض لخدمة الرؤية الغيبية.

ولعل هذا المزيج الغريب من الرؤية العملية المتطورة والصوفية المغالية هو ما يفسر إحدى سمات تاريخ الحركة الصهيونية، فالحركة الصهيونية كانت دائما لها حد أدنى عملي معلن وموضع جدل شديد من جميع الأطراف وحد أقصى تحوطه الهالات الصوفية، أما الذي يقرر الحد الأدنى المعلن فهو قوة الصهيونية الذاتية، والظروف العملية المحيطة بها، وكلما قلت الضغوط الخارجية وزادت القوة الذاتية

الصهيوني كلما صعد الحد الأدنى محاولا عبثا الوصول إلى الحد الأقصى أقول عبثا؛ لأن الحد الأقصى هو "المطلق" الذي لا تحده حدود.

وللنظر مثلا إلى الشعار القومي الديني المقدس "من نهر مصر إلى الفرات" حينما يكون بن جوريون في حالة انتشار مسيحاني يصبح نهر "مصر" نهر النيل ذاته، ولكن حينما يسقط الفانتوم وتسبب له المسيحانية التوسعية لبعض الصراع فإن نهر مصر يصبح نهرًا صغيرًا في العريش، وحيث أننا من البشر العاديين فلنترك مشكلة الحد الأقصى لأنبياء الصهيونية القوميين –المقدسين ولنركز على الحد الأدنى في حركته الدائبة في الصعود إلى "الأين"؟.

إذا ما نظرنا إلى قرارات المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧ ثم إلى قرارات مؤتمر بالتيمور عام ١٩٤٢ ثم إلى قرارات المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي عُقد في القدس عام ١٩٦٨ ميلادية أو عام ٥٧٣٨ يهودية وأخيرًا إلى قرارات المؤتمر الثامن والعشرين للاحظنا التباين الشديد ولرأينا الحركة الصاعدة للحد الأدنى، فقد صيغت قرارات المؤتمر الأول بشكل لا يزعج الجوييم (المطلوب عونهم في ذلك الوقت) ولا يزعج حكومة سويسرا (التي عقد على أرضها المؤتمر) ولذلك طلب المؤتمر إقامة "وطن قومي" وليس دولة) في فلسطين يضمنه "القانون العام" وليس (الشعب اليهودي أو العنف) كما أن المؤتمر دعا إلى تنظيم "الأقليات اليهودية" في العالم على ألا يسبب ذلك أي تعارضٍ في الولاءات، وكمل قرر المؤتمر محاولة تقوية الوعي والعواطف لليهوديين.

ولم تصبح فكرة الدولة اليهودية الشعار الرسمي للحركة الصهيونية إلا عام ١٩٤٢ في مؤتمر بالتيمور إلا أن المؤتمرين الصهيونيين قد عبّروا في قرارات هذا المؤتمر عن أملهم في انتصار الإنسانية والديمقراطية" وما شابه، كما أنهم رحبوا بالتعاون مع العرب بل وبالبعث العربي اليهودي المشترك، ورغم أن الغيبيات بدأت في الظهور إلا أن الصياغة كانت لا تزال إلى حد كبير علمانية.

أما قرارات المؤتمر السابع والعشرين الذي عُقد بعد حرب يونيو وبعد ضم أراض عربية جعلت حدود الدولة اليهودية تقترب بعض الشيء من الحدود "التاريخية" وبعد توحيد القدس، فنجد أن الأهداف المعلنة قد قطعت شوطًا كبيرًا في رحلتها إلى المطلق، فأهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودي في وطنه التاريخي عن طريق الهجرة من جميع البلاد، وتدعيم دولة إسرائيل القائمة "على مُثُل الأنبياء في العدل والسلام" والمحافظة على أصالة الشعب اليهودي بتنمية التعليم اليهودي

واللغة العبرية (اليهودية) والقيم الروحية والثقافية اليهودية؛ أي أن الدوائر الهندسية المتسقة والأساطير المعادية للتاريخ قد أصبحت برنامجًا سياسيًا معلنًا، ولا غرو فقد عُقد المؤتمر من منتصف "صرة" العالم، (أما قرارات المؤتمر الثامن والعشرين فهي استمرار لنفس النزعة الصوفية، فقد أعلن المؤتمرون أن حق الشعب اليهودي في أرض فلسطين غير قابل للطعن، وأنه في حرب الأيام الستة صدَّ المعتدون وحررت أرض الآباء وأعتقت القدس وأصبحت مدينة واحدة).

وهكذا نرى أن انتصارات الدولة اليهودية لا تروي غليلها، بل إنها ستزيد من ضراوتها؛ لأن الإحساس بالحدود التاريخية الحقيقية الذي يفرضه الواقع الموضوعي يأخذ في التآكل ويحل محله الإحساس بالحدود التاريخية المقدسة الأزلية المطاطة، حدود لا يعرف لها حدود ولا يمكن أن تقاس بالكيلومترات؛ لأنه من الصعب استبعاد السامرة وجبل الخليل وغزة من رقعة الوطن اليهودي "على قول موشي ديان، أحد كبار مفسري التوراة في العصر الحديث وجنرال في الجيش الإسرائيلي".

(٥) : الصهيونية والتراث اليهودي:

تتضح انتقائية الصهاينة التجريبية وديالكتيكهم المثالي الزائف في رؤيتهم للتاريخ الزائف في رؤيتهم للتاريخ اليهودي وللتراث اليهودي في المنفى، فهم قد أعادوا كتابة التاريخ اليهودي مقسمين إياه لفترات مظلمة عديدة "غير حقيقة" فقدت فيها الذات اليهودية وعيها بنفسها (وخرجت من دائرة وحدة الوجود اليهودية) أو أخذت موقفا سلبيا فوقعت ضحية سهلة لصيادي الجوييم، وإلى فترات أخرى مضيئة قليلة ولكنها "حقيقة" تمركزت فيها الذات اليهودية ودافع اليهود عن أنفسهم بضراوة وشراسة، فترات لم يكن اليهودي ضحية سهلة ولم يكن مواطنًا عاديًا بل كان بطلًا أو شهيدًا (وحسب هذا الفهم تكون أكثر الفترات خصوبة في حياة اليهود؛ هي الأعوام القليلة التي قامت فيها دولة اليهود في القدس، وتكون ثورة المكابيين، الذين دافعوا عن الدائرة اليهودية وعن الوجود الرسمي اليهودي في فلسطين، هي إحدى القمم القليلة بل والنادرة لهذا التاريخ وتكون الحركة الصهيونية هي التعبير الحقيقي عن هذا التمركز العدواني الذي يجسد الروح اليهودي).

هذا الفهم للتاريخ اليهودي يلغيه كلية ويجرده من المعنى، إنه فهم يشبه من بعض الوجوه تصور بعض المتعصبين من المسلمين الذي يرون أن الأمة العربية والأمة الإسلامية في حالة تدهور تدريجي ومستمر من أيام الخلفاء الراشدين وأن العصر الذهبي لأمتنا كان في أيام حكم أبي بكر وعمر بن الخطاب –رضي الله عنهما- أما العصر البرونزي فكان في عهد عثمان بن عفان –رضي الله عنه- والعصر النحاسي هو عهد علي بن أبي طالب –رضي الله عنه-، أما بعد ذلك فقد أصبح تاريخنا ترابا في تراب إلا من ومضات مضيئة سرعات ما تخبو مثل عهد عمر بن عبد العزيز.

ولكن ما هي العلاقة المثلى التي يجب أن تنشأ في العصر الحديث بين اليهودي وتاريخه؟ أجاب المسكيليم على هذا السؤال بأنه ينبغي أن تكون علاقة اليهودي بتراثه وتاريخه علاقة مبنية على الإيمان بمقدرة العقل والوعي على تبين الغث من الثمين والحق من الصواب، ولذا يجب على اليهودي أن يتقبل من تراثه ما هو إنساني ومنفتح ويرفض ما يتنافى مع روح العصر الحديث، (وهذا الموقف يشبه في كثير من الوجوه موقف اليهودية الإصلاحية).

أما الصهاينة، فإنهم يطرحون المسألة بشكل مختلف تماما فاليهودي هو تراثه، على حد قول جاكوب كلاتزكين الذي يرى أن "اليهودي الذي لا يرغب في أن يظل منتميا للشعب اليهودي، والذي يخون الميثاق ويهجر رفاقه في معركتهم المشتركة من أجل الخلاص يكون بذلك قد تخلى عن تراثه الماضي وفصل نفسه عن شعبه، وللسبب نفسه، فإن المتهود لا يستطيع أن يصبح يهوديا بقبوله لقيمنا الدينية والروحية فقط، إنه لا يكتسب نصيبا في المستقبل اليهودي إلا إذا اشترك وقبل المساهمة في الحياة اليهودية وانخرط عن إرادة تامة في تاريخها" (٢٠٣) فاليهودي هو تراث هو ماضيه إذا رفض تراثه فإن حتما يرفض يهوديته.

هذا الموقف من التراث اليهودي (الذي يذكرنا بموقف اليهودية المتحفظة) يتسم بالتبسيط الشديد؛ لأنه يجعل من هذا التراث المصدر الأساسي والوحيد "للقومية" أو الهوية اليهودية، ولكن إذا كان هذا التبسيط قد حل مشكلة الهوية اليهودية فإنه قد خلق في التو مشكلة أخرى للصهاينة، فاليهودي صهيوني إذا تقبل التراث اليهودي (والتراث اليهودي هو أساسا تراث الدياسبورا) فإنه بذلك يكون قد أفقد الصهيونية مبررها الفكري الوحيد للوجود؛ ألا وهو التمرد على المنفى كحقيقة أساسية في حياة اليهود، وقد لخص بيرديشفسكي هذا الموقف في عباراته التالية: "عندما نقهر الماضي نكون قد قهرنا أنفسنا، ولكن عندما يتغلب الماضي تكون نحن وأبناؤنا وأبناء أبنائنا من المقهورين...الأكسير والسم يوجدان في نفس المادة، فمن يرينا الطريق ومن يمهد لنا الممر" (١٩١٩-١٩٢) أجاب المفكرون الصهيونيون على هذا التساؤل بتجاهله أو بتبسيط الموقف فبيرديشفسكي نفسه في مقال له تحت عنوان: "تدمير وتعمير" يعلن تمرده الكامل على التراث اليهودي قائلا: "إن قلوبنا...تحس انبعاث إسرائيل يعتمد على ثورة..الإنسان أهم ن تراث أجداده..إن "العقيدة" التقليدية بم تعد كافية بالنسبة لنا" (١٨٣-١٨٤).

لقد بلغ من طغيان التراث على اليهودي أن التراث يشغل الآن المركز في الحياة اليهودية "وأصبح اليهود ثانويين بالنسبة لليهودية" (١٨٣) ولذلك ينادي بيرديشفسكي بوضع إسرائيل (الشعب) قبل التوراة (التراث) (١٨٤) وكما نرى يضع بيرديشفسكي اليهودي في مقابل تراثه ويهوديته ولا يرى أن الواحد امتداد للآخر كما فعل كلاتزكن) ونفس النغمة المتمردة الرافضة نجدها في كتابات جوزيف حاييم برنر (١٨٨١-١٩٢١) الكاتب والروائي الصهيوني فهو يصف تاريخ اليهود في المنفى بأنه "تاريخ مليء بالاستشهاد " وبسخرية مريرة يصف

الشعب اليهودي بالشعب الشهيد الذي قاسى كثيرًا وحينما يحاول برنر أن يصل إلى جوهر الماضي اليهودي يكتشف أنه لم يكن "حربًا طويلة من أجل حفظ قدسية "الدين اليهودي" إن تلك المئات من الأجيال لم تعش من أجل تقديس اسم الله ولكن من أجل خطط لإنجاز أعمالهم التجارية التي يتطلبها منهم الجمهور العام من أجل فائدتهم هم، لقد كانوا يحيون لصيانة أموالهم وزيادة سعر الفائدة وليصونوا أنفسهم في وجه التعميد".

ورغم أننا عرضنا لموقف كلاتزكين "كمدافع" عن التراث ولموقف بيرديشفسكي وبرنر كرافضين له، إلا أننا لا يمكننا أن نقسّم الصهاينة إلى فريقٍ من المؤيدين وآخر من الرافضين؛ لأن الازدواجية توجد بشكل أو بآخر في كتابات كل صهيوني على حدة.

إن موقف الصهاينة من التراث اليهودي يتسم بالتطرف في حالة القبول وبالتطرف في حالة الرفض؛ لأنهم لم يصدروا عن تحليل موضوعي لشخصية اليهودي في وجودها التاريخي المحسوس كنتاج تختلط فيه حضارة الأغلبية التي يعيش بين ظهرانيها بتراثه الديني والثقافي الخاص به، وإنما صدر الصهاينة عن تصور صوفي لليهودي على أنه داخل دائرة الوجود اليهودية، لا علاقة به بحضارة الجوييم، وبالتالي لم تكن علاقتهم بالتراث اليهودي المتنوع علاقة حقيقية ، وإنما كانت علاقة تكتيكية مجردة تخضع لمتطلبات نظريتهم الأسطورية (تماما مثل مواجهتهم الواقع بتجريبيتهم الانتقائية) فالصهيونية تستخدم الماضي والتراث اليهوديين لتبرر وجودها كحركة "قومية" ولكنها في مجال تبريريها لبرنامجها الثوري ترفض هذا التراث ذاته وتعده تراثا طفيفا يعبر عن انحطاط الشعب اليهودي وترفض الماضي اليهودي وتقدمه على أنه ماضٍ مآس وفظائع واضطهاد لا حد لهم، ولم يقع شمعون دفنوف المؤرخ اليهودي في هذا التخبط الشديد بين القبول والرفض المتطرفين؛ لأنه صدر عن تحليل واقعي للتراث اليهودي وللشخصية اليهودية في الدياسبورا، وتقبلهما على أنهما واقع تاريخي له جوانبه السلبية والإيجابية مثلهما في ذلك مثل أي ظاهرة تاريخية أخرى.

(٦) : الغيبيات العلمانية:

إن موقف الصهاينة الضيق من التاريخ اليهودي وموقفهم المتناقض من التراث نجم عن ولاء أيديولوجي ضيق لمُثُل مطلق يدور حول الأساطير والمفاهيم الأسطورية اليهودية القديمة، وكما بيّنا من قبل احتفظ الصهاينة ببنية هذه الأساطير الدينية بعد إعطائها لونًا ومحتوى علمانيًا، ومن هنا كانت تسميتنا لهذه المفاهيم بالغيبيات العلمانية، وقد كان هذا الأمر سهل المنال بالنسبة لهم بسبب ارتباط القومية اليهودية بالدين، فالله قد حلَّ في كل شيء حتى أصبح كل شيء مقدس، مقدس إلى درجة أصبح من الممكن معها للملحدين والعلمانيين أن يستمروا في تقديس هذه الأشياء بعد استبعاد الله مصدر كل قداسة.

أ-أسطورة العودة:

من أهم الأساطير اليهودية على الإطلاق أسطورة النفي والعودة والخلاص، وقد عكس الموقف التقليدي من الأسطورة تعقد موقف اليهودي في المنفى، فحياته في هذا المنفى -مثل حياة كل البشر- لم تكن خيرا خالصا ولا شرا خالصا، بل هي خليط من الاثنين فالمنفى كان يُعد عقابا نزل باليهود لعدم إخلاصهم لإلههم ولكنه في الوقت نفسه كان يُعَدُّ إحدى علامات تميزهم، والعودة أيضا كانت شيئا مرغوبا فيه، ولكن يجب عدم محاولة تحقيقها، فالعودة كانت تعني نهاية التاريخ، والله وحده هو القادر على أن يضع نهاية للزمان، وهذه السلبية التي شجبها الصهاينة هي في الواقع تعبير عن محاولة اليهودي التخلص من عبء المطلق الذي تلقيه على كاهله التصورات اليهودية القديمة، ولذا فرغم الحديث المستمر عن العودة وعدم اللقاء في أورشليم في العام المقبل، نجد أن اليهودي فضّل دائمًا البقاء حيثما وجد، إن عدد اليهود الذي "عاد" بالفعل إلى أرض الميعاد كان باستمرار محدودا، بل إن في كتب اليهود الدينية دعوة صريحة لكل يهودي أن يبني بيته حيثما وجد سواء في الدياسبورا أم في أرض الميعاد، لقد عرف أنبياء اليهود القدامى وعلماؤهم أن "المنفى " هو الحقيقة الأساسية في الحياة اليهودية، وما العودة إلى أرض الميعاد سوى فكرة طوباوية يجد أن تحدها الحدود التاريخية.

وقد وجد المسكيليم أن عليهم أن يتخذوا موقفا من أسطورة المنفى والعودة، فنادوا بأن المنفى واقع مؤلم ومؤقت يجب أن يزول عن طريق الاندماج أما العودة إلى

صهيون فهي بالنسبة لهم أكانت فكرة روحية تعادل في قيمتها حلم الإنسان بالعصر الذهبي.

وقد لا يوافق الصهيونيون "الليبراليون" مثل بن جوريون ، أو الماركسيون مثل بورشوف على صياغة الحاخام كوك، ولكنهم دون شك يؤمنون بالرابطة الصوفية اللاعقلانية التي تربط اليهودي بفلسطين، ولذا أصروا جميعا (باستثناء فئة قليلة تسمى بالصهيونيين الإقليمين الذين بحثوا عن أي بقعة في العالم لإنشاء الدولة اليهودية) أقول أصروا جميعا على أن تكون فلسطين هي الأرض التي تنشأ عليها الدولة والتي يجب أن يتجمع فيها المنفيون، وقد يختلف الصهاينة فيما بينهم على "شكل الدولة"؛ فبعضهم يرى أن تكون علمانية ليبرالية، والبعض الآخر ينادي بأن تكون ماركسية ثورية وفريقا ثالثا يرى أن تكون دولة ثيوقراطية تنفذ ما جاء في الكتب الدينية اليهودية حرفيا، غير أن كل هذه الخلافات هي خلافات حول الشكل؛ لأن أسطورة العودة تُشكِّل نقطة البدء لكل هذه المدارس الفكرية الصهيونية.

ولكن الصهيونية كما أشرنا من قبل حوَّلت أسطورة العودة إلى رؤية للتاريخ بل وإلى فلسفة للحياة وبرنامج سياسي، ولذا يمكننا القول أن الصهيونية تخلق غيبياتها العلمانية فهي علمانية؛ لأنها فرغت الأسطورة الدينية من محتواها الديني والروحي وحولتها إلى واقع سياسي خاضع للتقنين الموضوعي، ولكنها غيبية؛ لأنها تستند إلى أساسٍ لا عقلاني ليس له وجود إنساني أو تاريخي، استوردته الصهيونية من التراث الديني اليهودي (ولهذا السبب كان على الصهاينة أن يخفوا عن أنظار العالم "المتحضر" الوجود الفلسطيني حتى تظهر رؤيتهم على أنها مثالية ثورية، وليست مثالية غيبية)، بسبب هذه الغيبية العلمانية لم يجد المعسكر الديني أية غضاضة في الانضمام للصهاينة العلمانيين، يقول الحاخام صموئيل موهيليفر (١٨٢٤-١٨٩٨) :"يعتقد بعض الحاخاميين أن القومية تتناقض مع إيماننا بقدوم المسيح، لذلك فانا مضطر لأن أعلن أن ذلك ليس صحيحًا على الإطلاق؛ لأن أملنا وإيماننا كان دائمًا ولا يزال هو أن مسيحنا المنتظر سيأتي ويجمع إسرائيل المشتتة ليسكن أبناؤها في بلدهم بدل أن يظلوا هائمين على وجه الأرض ينتقلون من مكان لآخر" (٢٨٣) وفي خطابه في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧، لاحظ هرتزل ظاهرة التعايش بين اليهود المحافظين التقليدين واليهود المحدثين داخل إطار الصهيونية (دون أن يحاول بالطبع تفسيرها): "قدمت الصهيونية شيئا عظيما يكاد يكون مستحيلا حتى الآن؛ الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة

والعناصر اليهودية المحافظة المتطرفة، وقد حدث هذا بموافقة الطرفين دون أي تنازل من الجانبين...ودون أي تضحية فكرية" (١٢٤) (وكيف كان ذلك)؟ هذا مثل آخر على الديالكتيك الزائف أو على إمكانية أن تتعايش التناقضات داخل العقل الصهيوني دون تفاعل أو حسم، ولكن هذه التناقضات ليست حقيقية لأنها تمس المظهر دون المخبر، إن الفارق بين "علمانية" الصهاينة السياسيين وغيبية الصهاينة الدينيين ليست بأي حال جوهرية، وهذا يفسر أنه من الممكن أن يتفق في الرأي كل من موسي دايان، الصهيوني الملحد، وإسحق نسيم، ورئيس الحاخامات السفارديين في إسرائيل، فحينما صرّح ديان بأنه إذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة لا بد وأن تكون معهما أيضا أرض التوراة، (وهذا هو ثالوث وحدة الوجود كما سنبين فيما بعد) أبرق له الحاخام نسيم مهنئًا إياه "لتفهمه العميق للمفهوم اليهودي" ودعا له بأن يكون من المحظوظين الذين سيرون إسكان وتعمير هذه الأماكن بعد أن تتولاها إسرائيل! لقد اتفق الحاخام والجنرال؛ لأنهما ينتميان إلى تراث حضاري لا يُفرّق بين ما هو مقدس وما هو قومي ولا بين عالم الحاخام الإلهي وعالم الجنرال القومي بل تسيطر عليه صورة النبي الغازي الذي يجسد إرادة الشعب التي هي من إرادة الله، وروح الله التي تحل في الشعب، إن الجيش الإسرائيلي هو خير مفسر للتوراة كما يقول النبي الغازي بن جوريون.

إن الفارق الوحيد بين الصهيوني الليبرالي العلماني والصهيوني الديني أو الروحي أنه بينما لا يلتزم الأول بأي قيم روحية أ, أخلاقية، يلتزم الآخر –على الأقل فكريًا- بالقيم الأخلاقية اليهودية، وهذا تناقض لم يتمكن آحاد هعام، مؤسس الصهيونية الروحية، من حسمه، فقد أراد أن يحول فلسطين إلى "مركز روحي" لليهودية في العالم، ولكنه رغم علمانيته كان يؤمن ببعض القيم الأخلاقية، ولذا فإنه حيثما ذهب إلى فلسطين، إلى مركزه الروحي، وسمع عن
إرهاب الصهاينة ضد العرب، فجمع فيما رأى وقال كلمته المأثورة: " إذا كان هذا هو المسيح المنتظر، فإني لا أود رؤيته".

ب- أسطورة استمرار إسرائيل والقياس التاريخي الزائف:

إن وجود المطلق متجسد في اليهود داخل التاريخ – كما بينا من قبل- يلغي فكرة التقدم كلية أو علي الأقل فكرة الصراع الذي يدفع بالتاريخ للأمام، كما أنه يؤكد الاستمرار والثبات وليس التغير والتحول وبالفعل تسيطر على العقل الصهيوني أسطورة استمرار إسرائيل، فيهود العالم الحديث هم ورثة مباشرون لقبائل إسرائيل

القديمة، وما حكومة إسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة الكومونولث اليهود الثالث (باعتبار أن الكومونولث الأول هو الذي حطمه الأشوريون في عام ٧٢١ق.م والثاني هو الذي حطمه الروماني عام ٧٠ب.م.)، يقول سمولنسكين :" نعم نحن شعب، نحن شعب منذ البداية حتى الآن، لم ننقطع عن كوننا شعبًا بعد أن دمرت مملكتنا وشردنا من أرضنا ". أما نخمن سيركين فيقول أنه ظن لبعض الوقت بأن الجرح اليهودي (الشهير) الذي استمر في النزف" منذ سقوط القدس وحتى سقوط الباستيل كان على وشك الاندمال الكامل ولكنه خابت ظنونه "(٢٢٠)، ويقول سوكولوف: " أن هناك حدثًا واحداً يجمع بين ساعات الازدهار في التاريخ اليهودي بين كافة الأجيال الممتدة من إبراهيم حتى المعاصرين".(٢٠) ولذلك يدَّعي بعض الصهاينة "بأن أصول الصهيونية تمتد بعيدًا منذ أيام الأنبياء الأوائل"، وأن الدعوة للعودة شيء متصل منذ بداية التاريخ اليهودي حتى الآن، من الأنبياء الأول إلي هرتزل (٣٥٤) على حد قول أدموند فليغ (١٨٧٤- ١٩٦٣) الشاعر والمؤلف المسرحي الفرنسي اليهودي.

وتترجم أسطورة الاستمرار نفسها إلى ما يمكن تسميته بالقياس التاريخي الزائف، الذي يفترض أن الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه بكثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم السحيق، فنجد مثلًا أن حاييم وايزمان يطالب العرب في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني العشرين (١٩٣٧) بالتفاوض مع اليهود، مذكرًا إياهم أنه خلال الفترات العظيمة من التاريخ العربي تعاون الشعبان سويًا في بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة الغربية (٤٥٧)، العرب لا زالوا كما كانوا، واليهود أيضًا لم يتغيروا، أما الظروف التاريخية المتغيرة فهي أمر ثانوي يمكن التغاضي عنه كلية، ويدعو الحاخام كاليشر، وهو من أوائل المفكرين الصهيونيين، كل يهود العالم للعودة للأرض وللعمل بجد "وهكذا سوف لا نحتاج لاستيراد القمح من مصر أو من البلاد المجاورة؛ لأن محصولنا سيكون وفيرًا "(١٦). وقد تكون الإشارة هنا إلى قصة سيدنا يوسف واضطرار اليهود للهجرة إلى مصر "لاستيراد القمح" بسبب فقر فلسطين، وقد تكون الإشارة للتوقعات المسيحانية اليهودية بخصوص المعجزات التي ستحدث في أرض الميعاد بعد العودة، فالأرض الجدباء ستخصب وتزدهر، واللعنة التي حلت على الأرض لغياب أهلها عنها ستزول لتعم النعمة والبركة(٢١). ولكن هذه ليست هي القضية، فالذي

يهمنا هو أن ظاهرة حديثة مثل الاستعمار الاستيطاني ينظر إليها الحاخام على أنها تعبير عن حقيقة أزلية صوفية، وينظر إليها في ضوء تجارب اليهود الأسطورية.
ولعلَّ من أطرف الأمثلة على هذا الإيمان باستمرار إسرائيل والقياس التاريخي الزائف؛ هو ما صرَّح به أستاذ التاريخ بالجامعة العبرية من أن جنود إسرائيل عام ١٩٦٧ قد رأوا البحر الأحمر لأول مرة بعد أن عبره موسى منذ آلاف السنين!
وقد كان من الشائع في الولايات المتحدة بعد حرب يونيو مباشرة أن يحاول بعض الحاخامات تفسير أسفار العهد القديم مبينين أن معارك يونيو إن هي إلا تكرار لمعارك حدثت من قبل (الدوائر المغلقة مرة أخرى والتاريخ الذي لا معنى له) ولكن المرء لا يمكن إلا أن يتساءل: قد يكون ضرب طائرات الميغ الفرعونية بالقنابل، بل ورش معسكرات الكنعانيين بالنابالم قد ورد ذكرهما في الكتب اليهودية المقدسة القومية، ولكن هل ورد أيضا ذكر ضرب الليبرتي؟ ألم يكن من الأفضل أن يطلب العبرانيون من حلفائهم صبغ غواصه التجسس بالدم حتى لا يهلكها يهودي عن طريق الخطأ؟
ويجب علينا التنويه هنا بأن أسطورة العودة، وأسطورة استمرار إسرائيل ليستا الأسطورتين الوحيدتين اللتين ورثهما الصهاينة من التراث اليهودي، فهناك أسطورة الشعب المختار، وأسطورة المسيح المخلِّص، وأسطورة الأمة الروحية وهي أساطير سبق أن عرضنا لها وسنشير لها مرات متعددة في طي دراستنا.

(٧) : المصطلح العلماني الصوفي:

يبدو أن مقدرة تناقضات الفكر الصهيوني على التعايش لا حدود لها، فمن الملاحظ أنهم رغم تأكيدهم علي روحانية الأمة اليهودية واستمرارها، لا يكِلّون عن ترديد أن اليهود يكونون أمة مثل كل الأمم وأنهم يريدون أن يعيشوا حياة عادية طبيعية، وهذا الشعار ليس من قبيل الدعاية السياسية المقصود منها الاستهلاك العالمي أو المحلي، بل هو جزء حقيقي من الرؤية الصهيونية المتناقضة كما تدل على ذلك كتابات بنسكر وهرتزل وبن جوريون، فاليهودي الصهيوني يعود إلى ماضيه ويهرب منه، وبنفس الطريقة، نجد أنه يدافع عن دوره غير التاريخي المطلق، ولكنه يلوذ أيضًا بالفرار إلى الوجود الإنساني العادي، بل إن الرغبة في الحياة العادية هي في الواقع تعبير عن رغبة في الهروب من الماضي ومن التمييز الذي يسبب الانعزال، إن غوردون يدعو اليهود إلى الخروج من قوقعة الجتو والماضي ليحيوا حياة طبيعية غير هامشية (٢٥٥)؛ لأن حياة المنفى أعاقت نمو اليهودي الطبيعي وتحقيقه لذاته (٢٦١). ثم يضيف غوردون أن " على أن من يريد البعث القومي والحياة اليهودية الكاملة أن يتخلي عن حياة المنفي " (٢٥٩). فكما وضع بيرديشفسكى اليهودي في مقابل ماضيه، يضع غوردون حياة الشعب المختار مقابل حياة الإنسان اليهودي الطبيعي الذي يريد أن يحيا حياة عادية.

وقد حاول سمولنسكين داعية الإحياء الثقافي العبري، أن يحل هذا التناقض بطريقة الصهيونية المعتادة: أما تجاهل التناقض أو تصفية، فهو يقول: "توراتنا هي وطننا الذي يجعل منا شعبًا وأمة بالمعنى الروحي"؛ أي أن اليهود أمة روحية ليست مثل كل الأمم، ولكنه يضيف قائلًا: "ولكننا في حياتنا العملية الطبيعة كبقية الناس "(٤٧).

اليهودي إذن روحي عملي، غيبي علماني، حاضره المادي لا يناقض وجدانه الأسطوري؛ أي أنه أعجوبة العجائب، أليس هو نتاج المقدسات القومية والقومية المقدسة؟ وهذه التناقضات (التي لا تكون كلًا متكاملًا، وإنما تكون مزيجًا ميكانيكيًا بين متناقضين ثابتين غير متفاعلين) هذه التناقضات عبرت عن نفسها في أسلوب الصهاينة الذي تختلط فيه المصطلحات الصوفية الغيبية بالمصطلحات العملية السياسية.

ولعلَّ هذه العبارة التي وردت في خطاب الشاعر حاييم نخمن بياليك في حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس عام ١٩٢٥ من أفضل الأمثلة على هذا المصطلح

العلماني الصوفي الصهيوني، فهو يتحدث عن وعد بلفور (هذا القرار السياسي) على أنه سيبدأ عهدًا جديدًا "خير من كل العهود السابقة، وسينتهي بإنجيل جديد، إنجيل خلاص البشرية كلها" (١٨٠) ويبدو أن وعد بلفور (وهو جزء من التاريخ اليهودي) تحيط به الآن هالة من القداسة في عقل الصهاينة الذي تعشعش فيه كثر من أقاصيص الماضي والأساطير، فالعالم الكيميائي الصهيوني الشهير وايزمان، الذي تسمى باسمه كثير من المعاهد العلمية في إسرائيل وخارجها، مارس أحاسيسًا صوفية عميقة بعد حصوله على هذا الوعد السياسي من الإمبراطورية البريطانية "صدقوني بأنني عندما كنت أحمل وعد بلفور بيدي شعرت وكأن شعاعًا منا لشمس حطَّ عليَّ، وخُيل إليّ أنني سمعت وقع أقدام المسيح المنتظر" (٤٥٠)، وهكذا ترجمت الحقيقة السياسية نفسها إلى واقعة أسطورية في ذهن وايزمان، فاستخدم المصطلح الصهيوني المتناقض، وإذا كان بلفور هو الذي عجّل بوصول المسيح المنتظر فإن "وجود عبد الناصر في الشرق الأوسط" كان له أثر عكسي، فهو الذي يعرقل مجيء المسيح ويعرقل بداية الخلاص وهذا تصور سائد في إسرائيل كما بيّن أوري أفنيري في مقال طريف له عنوانه: "الجآن والأرواح" ومن أطرف الأمثلة على هذا المصطلح العلماني الصوفي مقال سمولنسكين المعنون: "البحث عن طريقنا" الذي يحاول فيه أن يبرر اختياره لفلسطين كأنسب الأماكن للهجرة اليهودية، أما السبب الأول الذي يسوقه فهو كما يلي "سيذهب أولئك الذين يحيون ذكريات أسلافهم، عن طيب خاطر إذا تأكدوا من أنهم سيكسبون معيشتهم هناك" (٥٢).

ينقسم هذا العرض للقضية إلى قسمين لا يربطهما رابط، قسم صوفي سلفي والثاني عملي بارد، أما السبب الثاني الذي يذكره سمولنسكين فلا يقل تناقضًا: "الوطن (الجديد) ليس بعيدًا عن مساكنهم".

يبدو أن العناية الإلهية قد اختارت الأرض المقدسة بالقرب من يهود المنفى حتى يمكنهم "العودة" إليها بسعرٍ معقول، أما السبب السادس والأخير فهو متناقض لدرجة أنه يثير الضحك والاشمئزاز معا: "يستطيع المستوطنون أن يزدهروا بإقامة مصانع للزجاج والمنتجات المشابهة؛ لأن رمال هذا الوطن "الجديد" ذات نوعية عالية" (٥٣)؛ لأن اليهودي يعيش خارج التاريخ وداخله داخل الدائرة المقدسة أبدًا وداخل الكرة الأرضية مؤقتًا، فهو مرتبط صوفيا بالأرض المقدسة، ولكنه أيضًا يعرف سعرها الحقيقي ويعرف كيف يعرضها للبيع والإيجار، وقد برر بورشوف،

الماركسي الصهيوني المسكين! تفضيله لأرض الميعاد على أي بقعة أخرى في العالم على أساس أنها أرض فقيرة لا تصلح للاستثمار الرأسمالي الذي هدفه الربح المادي المحض، وحسب هذا التصور نكتشف أن العناية الإلهية عندها اتجاهات يسارية تتفق واتجاهات الصهيوني بورشوف، ولكن بورشوف حسم هذا التناقض عن طريق تقبله على علاته دون مناقشة.

(٨) : أسطورة العودة للطبيعة الكونية:

يمكننا أن نُعِدَّ الصهيونية –من بعض النواحي- حركة رومانتيكية فهي تثور على الفكر الاستناري وعلى العقل عامة، كما أنها تؤكد أهمية العاطفة، وتطالب اليهود بالعودة إلى الماضي المجيد وبالتمرد على التراث، كما أن لا تاريخية الصهيونية تشبه إلى حد بعيد النزعة اللاتاريخية الموجودة في الفكر الرومانتيكي، ومن أهم الشعارات الرومانتيكية التي تبناها لفيف من المفكرين الصهيونيين شعار العودة للطبيعة، فآرون غوردون يدعو اليهود للعودة للطبيعة في نغمة مفعمة بالعاطفة "وعندما تعود إلى الطبيعة أيها الإنسان ستفتح عيونك في ذلك اليوم وتنظر مباشرة في وجهها وفي مرآتها سترى صورتك، عندئذ ستعرف أنك قد رجعت إلى نفسك لأنك عندما اختبأت عن الطبيعة كنت مختبئًا عن نفسك" (٢٥٥) أما بيرديشفسكي فهو يقول: "إن الكون يدل على عظمة الله، والطبيعة تروي صنع يديه؛ لأن الطبيعة هي أم لكل الحياة ومصدر كل الحياة، إنها منبع الكل، وهي منبع وروح كل الكائنات الحية" (١٨٦) (الواحد الكل الذي يبتلع الأجزاء ويطمس معالمها بدأ في الظهور)، وهو يخلص من ذلك إلى أن "كل من يسير في طريقه ويرى شجرة جميلة وعقلا جميلا وفضاء جميلا ويتركها ليذكر في أمور أخرى، يكون كمن خسر حياته"

وفي لغة كلها لوعة وألم يقول: "ردوا إلينا شجراتنا الجميلة وحقولنا الجميلة! ردوا إلينا الكون" (١٨٧) والدعوة للعودة للطبيعة تبدو وكأنها دعوة للحياة ولتجدديها، فبيرديشفسكي يرى أن اليهود بابتعادهم عن الطبيعة قد أصبحوا "رجالا نضبت قواهم الطبيعية" (١٨٣) أما غوردون يرى أن الألفي سنة التي قضاها الشعب اليهودي معزولًا عن الطبيعة داخل أسوار المدينة كانت سنوات سجن (٢٥٥) والابتعاد عن الطبيعة حول الدين اليهودي إلى "يهودية مجردة" تعلو على الإنسان؛ لأنها تضعه في "قوالب جاهزة" ميتة (١٨٣-١٨٤) ولهذا فالتراث اليهودي ثقل يرزح تحته اليهودي ويتناقض مع كل ما يشعر به في قلبه كفرد (١٨٨) ولذا فهو يجد نفسه مضطرًا دائما للأن يضحي بنفسه من أجل الشعب "فأهدافه الشخصية تتعارض في بعض الوجوه مع أهداف المجموع "(١٨٩)، " إن الإنسان اليهودي... مكبوت يعيش بعاداته وقوانينه ومبادئه وأحكامه التقليدية، وذلك لأن أشياء كثيرة خلَّفها له أسلافه من شانها أن تميت الروح وتنكرعلى النفس حريتها "(١٩٠).

ويتجلى هذا الموت في أعلى صوره في شخصية يهودي الدياسبورا الذي كان يعيش داخل جدران الجتو والذي فقد إحساسه بالطبيعة وانشغل في تصورات فكرية مجردة، ولذا فقد أصبح شخصية هامشية شاذة غير طبيعية لا يمكنه أن يقوم إلا بأعمال فكرية مثل المحاماة والمحاسبة، إن احتقار العمل اليدوي قوي بين اليهود لدرجة "أن أولئك الذين يقومون بهذا العمل يفعلون ذلك مضطرين وعليهم أن يهربوا منه يومًا إلى "حياة أفضل"(٢٥٦).

مقابل هذا الموت الذي تفرضه الحياة والتقاليد اليهودية يطالب الصهاينة "الطبيعيون" بمنح الفرد اليهودي الفرصة أن "يحيا" (١٨٩)، وأن تصبح القومية اليهودية "قومية حية متطورة" (١٨٤). والعودة للطبيعة هي السبيل لحياة جديدة تختلف عن "حياة المنفى" (٢٥٩) حياة يتحول فيها اليهودي إلى "كائن بشري طبيعي، سوي، صادق مع نفسه" (٢٦١)، وعن طريق العمل اليدوي يمكن أن "يمتلك اليهود ثقافة خاصة بهم"، ومن خلال العمل فقط، كمثلٍ أعلى، يستطيع اليهود أن يشفوا أنفسهم من الطاعون الذي يعانون منه منذ عدة أجيال، وأن يرأبوا الصدع بينهم وبين الطبيعة" (٢٥٨)، لابد أن يصبح الشعب المقدس "شعبًا حيًا"(١٩٢).

إن شعار العودة للطبيعة الذي تبناه بعض الصهاينة من الممكن أن يصبح بالفعل شعارًا ثوريًا ودعوة للحياة إذا أريد به إيقاظ الإنسان وتنبيهه إلى إمكانياته الإنسانية الكامنة، وذلك عن طريق افتراض وجود "حياة أفضل وأكثر طبيعية"؛ لأنه أكثر تناسبًا مع إمكانيات الإنسان وإمكانيات الجماعة الإنسانية (وهذا ما فعلته البرجوازيات الأوروبية في مرحلتها الثورية الليبرالية)، ولكن شعار العودة للطبيعة نفسه يمكن أن يتحول إلى شعار رجعي غير إنساني إذا ما أريد به العودة إلى طبيعة مطلقة تتحدى حدود التاريخ وتلغيه، طبيعة يمتزج بها الإنسان ويفقد وعيه وكيانه الفردي ووجوده النسبي التاريخي"، إن ما يحدد ثورية شعار العودة للطبيعة من رجعيته هو نوعية الطبيعة التي "يعود" لها الإنسان: هل هي طبيعة لها وجه وملامح إنسانية؟ أم أن وجهها مطلق جامد؟ فما هي الطبيعة التي يعود لها الصهاينة؟ هل هي طبيعة حية خصبه معطاءة، أم أنها تقع داخل الدائرة المطلقة؟ هل هي حقًا دعوة صهيونية لليهود أن يخرجوا من تحت نير مملكة السماء إلى الحياة المحسوسة الطبيعية؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنه ولا شك أمر مثير للدهشة؛ لأن الصهاينة قوم عابسو الوجه لا يتحدثون بتاتًا عن اليهودي كفرد من حقه أن

يحيا حياة محددة سعيدة، بل يتحدثون عنه كبطل أو شهيد، كما أنك لا تجد في كتاباتهم إلا إشارات لليهودية ذلك الدين المقدس والى اليهود ذلك الشعب المختار الذي يحمل عبء رسالته الأزلية.
هل هناك حقًا بعض الصهاينة القادرين على الابتسام وعلى الحياة العادية النسبية؟.
اكتشف الصهاينة "الطبيعيون" ما يمكن أن نطلق عليه الطبيعة اليهودية، فبيرديشفسكي تذكر أن أسلافه المباشرين تركوا له الجتو، ولكن أسلافه القدامى من الرعاة والمزارعين تركوا له أيضًا "نشيد الإنشاد"، نشيد "أمجاد الطبيعة السامية التي لا حدود لها " (١٩٠) واكتشاف الصهاينة الطبيعيين لهذه الطبيعة القديمة مكَّنهم من أن يطرحوا تصورًا جديدًا للتاريخ اليهودي وللبعث القومي الحديث، فهم قدموا تصورًا لحياة اليهود القدامى على أنهم شعب من الرعاة الغزاة يعيش في بساطة ووئام مع الطبيعة، ممتزج بالأرض، شعب عبراني له جذور وليس شعبًا هائمًا على وجهه منفيًا؛ (مثل: يهود الدياسبورا الهامشيين).
ويعطينا بيرديشفسكي في مقاله "في اتجاهين" صورة لإسرائيل القديمة الطبيعة التي تغني أغنية الكون والطبيعة، أغنية السماء والأرض وإلهها، أغنية البحر وامتلائه، أغنية التلال والمرتفعات، أغنية الأشجار والأعشاب، البحار والجداول، وبعد ذلك جلس كل إسرائيلي تحت كرمته أو تينته، ثم نبتت البراعم على التينة، وامتد سحر التلال الخضراء إلى البعيد، أن تلك الأيام كانت أيام بحبوحة وجمال؟ (١٨٦)، (وقد أثر هذا التصور للتاريخ اليهودي على حركة الكنعانيين).
وهكذا يهرب اليهودي المتمرد إلي طبيعة يهودية، ولكنا نعرف تمامًا أن كل ما هو يهودي تلفحه لفحة من القداسة فيفقد الحياة ويكتسب ثبات الأزلية، وهذا هو الحال مع الطبيعة اليهودية فهي تقع داخل الدائرة المتجمدة، ولعلَّ هذا يفسر السر في وجود بعض الحاخامات الرومانتيكيين الطبيعيين؛ مثل الحاخام كوك الذي يطالب اليهود بالعودة للطبيعة في كلمات تشبه كلمات المتمردين الطبيعيين من عدة وجوه: " لقد أدرنا ظهورنا عن الاهتمام بحياتنا الجسدية وعن تطوير أحاسيسنا، كما أهملنا كل ما له علاقة ملموسة بحقيقة الجسد؛ لأننا أصبحنا فريسة لمخاوفنا، كان ينقصنا الإيمان بقدسية الأرض" ثم يقتبس الحاخام كوك من التراث المميت للروح، المشناة ، عبارة مفادها أن الإيمان يمكن أن يعبر عن نفسه عن طريق الزراعة أو العمل اليدوي" فالإنسان يمكن أن يبرهن عن إيمانه بالحياة الأزلية عن طريق الزراعة "(٣٠٥)، (وهذا يذكرنا بقول الحاخام كاليشر؛ بأن الاستيطان في

فلسطين سيساهم في تطبيق"الوصايا الدينية المتعلقة بالعمل في تربة الأرض المقدسة "(١٦)، العودة للطبيعة اليهودية إذن هو الطريق للحياة الأزلية والدائمة.
والمطلق الأزلي الواضح البين في هذا الاقتباس من كوك كان مختفيًا بين ظلال الأشجار الوارفة في الاقتباسات التي أوردناها آنفًا من كتابات الصهاينة المتمردين. ولكن المطلق كان هناك طيلة الوقت، ولو درسنا أجزاء أخرى من كتابات هؤلاء المتمردين لوجدنا أن المطلق بوجهه الذي لا قسمات له ولا ملامح يظهر بشكل سافر ودون حياء. ففي مقال لغوردون بعنوان "بعض الملاحظات" ينبه الكاتب القارئ إلى أن العودة للطبيعة ليست هي العودة "للحياة العادية التي تشكل أسلوب حياة كل الأفراد وكل الأمم"(٢٦١) فاليهود لا يتبعون بأي حال "طريق الضرورة التاريخية"؛ (لأنهم خارج التاريخ)، ورغم أن غوردون يتسامح قليلًا ويقرر أن ثمة "عامل تاريخي" داخل في تكون الشخصية اليهودية (٢٦٤)، إلا أنه يعود فيؤكد أن العنصر الكوني المطلق الذي يمكن وصفه "بأنه مزيج من أرض الوطن القومي الطبيعية وروح الشعب الذي توطن هذه الأرض" هو المكون الأساسي لهذه الشخصية (٢٦٣) و" مجنون الروح" (وهو إنسان غوردون الطبيعي الذي يعيش علي الفطرة) لا يقنع بالتفكير في الحياة كما يفعل يهود الجتو وإنما يسعى لها، ولكنه لا يبحث عن الحياة الإنسانية المحسوسة" بل عن حياة ذات أبعاد كونية، حياة على صورة الله، حياة أزلية؟ (٢٦٨)، حياة لا تاريخية أزلية لا تنبض بأي حياة، ويهود الدياسبورا المساكين يحيون وجودًا تاريخيًا وحسب (مثلهم مثل بقية البشر) ولكنهم عن طريق العودة للطبيعة الفلسطينية في أرض الميعاد، وفي أرض الميعاد وحدها دون سائر بقاع الأرض، يمكنهم أن يخوضوا تجربة بعث "الجانب الكوني" لشخصيتهم (٢٦٥).
ولا يتفق مارتن بوبر "الإنسان العبراني" كما يصف نفسه وكما يصفه بعض دارسي فلسفته، مع فكرة العودة للطبيعة في مقاله "الإنسانية العبرية" حيث يقول: "صحيح أننا بحاجة إلى الحياة العادية، ولكن ذلك ليس كافيًا لنا بأي شكل من الأشكال، فنحن لا نستطيع الاكتفاء "بالطبيعة" بدل الغرض الأساسي الأزلي لوجودنا، إذا أردنا ألا نكون سوى أناسًا عاديين، سوف يتوقف وجودنا حالًا (٣٣٩). ويخلص بوبر من ذلك إلى أنه يجب وضع "الإنسانية العبرية ضد القومية اليهودية التي تعتبر إسرائيل أمة كالأمم الأخرى" (٣٣٥)؛ أي أن بوبر يرفض مقياس "الطبيعة" ويرفض قيم الحياة العادية الطبيعية للحكم علي اليهود واليهودية.

ولكن المفكر الإنساني الهيوماني عامة يعادي الطبيعة؛ لأنه يحاول أن يعلي ذات الإنسان على ما عداها من الأشياء، وهو يرفض القيم السائدة العادية ليصل إلى أفق أكثر رحابة، أما بوبر فهو يحرر الإنسان من الطبيعة ولكنه يطلب منه أن يسجد أمام وثن "الوجود الأزلي"، وهو وثن يرتدي قناعًا إنسانيًا تاريخيًا ولكنه وثن لا مراء في ذلك، فما هو بالإنساني وما هو بالتاريخي، ورغم كل الاختلافات الفكرية بين بوبر المتصوف وغوردون الرومانتيكي العلماني فإنه يمكننا القول أنهما يتفقان على وجود عنصر كوني أزلي في الطبيعة اليهودية يراه بوبر متجسدًا في التاريخ اليهودي وفي القيم اليهودية (مثل اليهود القدامى المتدينين) بينما يراه غوردون متجسدًا في الطبيعة وفي أرض الميعاد (مثل بعض الصهاينة المحدثين العلمانيين) والفارق بين المفكرين طفيف، وهو في الواقع فارق في التسميات، فاليهودية كمطلق لا تختلف كثيرًا عن الطبيعة كمطلق فكلاهما جامد لا يتغير وكلاهما يعلو على الإنسان، وهذه حقيقة تنبه لها الحاخام الصهيوني بينس ووصفها دون أن يبين دلالتها الأخلاقية، فقد شبه بينس تطور اليهودية بتطور الطبيعة؛ لأن "الجوهر يدوم في حين أن الأشكال تتغير من لحظة لأخرى" (٢٨٧)، (ويلاحظ هنا عدم الاكتراث الهيجلي المثالي بالشكل المحدد المحسوس)، إن تاريخ بوبر أو يهوديته أمر ثابت جامد يكرر نفسه في دورات متداخلة متشابهة تمامًا مثل طبيعة غوردون، وهذا التشابه ناتج عن أن بنية أفكارهما متشابهة، وهي البنية الصهيونية التي جوهرها ذوبان الأجزاء في الواحد، بنية البانثيزم أو وحدة الوجود، وقد يختلف "محتوى" وحدة الوجود من مفكر صهيوني لآخر، وقد تختلف الظواهر التي يحل فيها المطلق ولكن البنية واحدة لا تتغير، وهذا هو جوهر وثنية وفاشية كل الصهاينة ابتداء من أي حاخام أرثوذكسي مرورًا علي بوبر الصوفي العلماني وانتهاءً بماجنس العلماني الروحي وديان الجنرال الملحد، وفيما يلي سنورد بعض الاقتباسات من كتابات بعض الصهاينة لنبين عما ترويه أفكارهم مكتفين بالحد الأدنى من التعليق، ولنبدأ بمارتن بوبر.

"إن خلاصنا الوحيد هو في أن نصبح إسرائيل من جديد، ونصبح كلًا واحدًا فريدًا يتألف من الشعب والمجتمع الديني، شعب متجدد ودين متجدد ووحدة بينهما متجددة... إن القيم العظيمة التي أنتجناها عن تزاوج الشعب والدين، فلا نستطيع الاستعاضة عن هذا الزواج الأصلي بالجمع بين الأمة والدين جمعًا سطحيًا

مصطنعًا؛ لأن ذلك يؤدي إلى نضوب القيم، ذلك أن قيم إسرائيل لا يمكن أن تولد من جديد خارج إطار هذا الاتحاد ذي الوضع الخاص" (٣٣٩).
(الدين – الشعب) (الأرض) (الله)
ولكن بوبر في خطابه الذي أرسله إلى المهاتما غاندي يطلب منه فيه تأييد الاستيلاء الصهيوني على "الأرض" نجد أن الثالوث قد اكتمل.
* إننا لم نستطع ولا نستطيع أن نتخلى عن المطلب اليهودي فهناك شيء أسمى حتى من حياة شعبنا مرتبط بهذه الأرض؛ إنه عمل الشعب ورسالته المقدسة "(٣٤٠).
(الشعب – رسالة الشعب المقدسة – الأرض)
(الله)
إن المطلق الذي يعلو على الإنسان قد ربط الشعب بالأرض ربطًا لا فكاك للشعب منه، وبوبر يستخدم استعارة الزواج التي استخدمها من قبل في وصف علاقة الشعب بالدين ليصف علاقة اليهودي بالأرض.
* إنني أومن بتزاوج الإنسان والأرض... إن هذه الأرض تعترف بنا لأنها بواسطتنا تصبح مثمرة" (٣٤١).
(الشعب – الأرض) (الله)
(واستعارة الزواج تحيط بها هالة من القداسة في التراث اليهودي؛ فعلاقة الله بالشعب قد وصفت في العهد القديم بأنها مثل علاقة الزواج). ولا يختلف موقف بوبر، رغم إنسانية مصطلحة الزائفة، عن موقف الحاخام القائل: "نحن كشعب لا يليق بنا أن نلقب بإسرائيل (المدافعين عن الله) إلا إذا كنا في أرض إسرائيل"(١٠).
(الشعب - - الله – الأرض)
وهذا لا يختلف كثيرًا عن موقف الحاخام حاييم لاندو:
* إن روح شعبنا لا تستطيع التعبير عن نفسها إلا إذا عادت الحياة القومية إلى أرضنا من جديد لأن "القبس الإلهي لا يؤثر في شعبنا إلا وهو في أرضه"(٣٠٩).
(الشعب - - الله – - الأرض)
أما الحاخام الصهيوني كوك فيقول:
*(ليست أرض إسرائيل شيئًا منفصلًا عن روح الشعب اليهودي... إنها جزء من جوهر وجودنا القومي، ومرتبطة بحياتنا ذاتها وبكياننا الداخلي ارتباطًا عضويًا... إن ما تعنيه أرض إسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب المنتشرة في

شعبنا ككل والتي تشع بتأثيرها علي كل العواطف السليمة "(٢٩٤) (الشعب - - الله – - الأرض)

وأما الحاخام يهود اليوم ماجنس (١٨٧٧ – ١٩٤٨) أول رئيس للجامعة العبرية فيحدد القضية على النحو التالي:

*اليهودي لن يتخل عن أرض إسرائيل، ولن يستطيع أن يفعل ذلك (حتى لو أراد)؟ لقد قلت أن فلسطين قيمة تحدد ذاتها، بصخورها وتلالها جبالها.(٣٢٤).

(الشعب – الأرض) (الله)

ويقول غوردون المتمرد:

* "إن البعث القومي لن يتم إلا عن طريق العودة) إلى حقول وطننا القومي وتحت سمائه... إننا نأتي لوطننا لنزرع في تربتنا الطبيعية التي نزعنا منها ولنضرب جذورنا عميقة في مصادرها الحياتية، ولنمد فروعنا بعيدًا خلال هواء وطننا القومي وتحت شمسه" (٢٦٥).

(الشعب– روح الحياة– الأرض)

(الله)

وليلاحظ القارئ استخدام الاستعارة العضوية التي تسوي الإنسان بالطبيعة والأشياء.

*وحينما سئل وزير الدفاع الإسرائيلي، وهو أيضًا عالم آثار يهودي ومفسر للتوراة غير متفرغ، عما إذا كانت مطالب إسرائيل "الدينية" و"التاريخية" بخصوص بعض أجزاء الأرض المحتلة يجب أن يكون لها دور في السياسة الإسرائيلية أجاب قائلًا: هذا هو أساس الوجود الإسرائيلي: إنه واحد من العناصر الثلاثة التي تشكل إسرائيل؛ وهي: الشعب اليهودي، والكتاب المقدس، وأرض اليهود(٢٣).

*(ولذلك) إذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة فلا بد وأن تكون معهما أيضًا أرض التوراة.

(الشعب– التوراة– الأرض)

(الله)

وهذه الكلمات هي التي نال عليها الحاخام موشي ديان تهنئة الجنرال إسحق نسيم حاخام السفارديين، وهي كلمات لا تختلف كثيرًا عن كلمات بوبر الصوفي الذي لا يقود جيشًا لحسن الحظ.

إن اليهودي المتمرد يهرب إلى طبيعة يهودية مقدسة مطلقة ساكنة ميتة، لا تفترق كثيرًا عن "تاريخ" بوبر الساكن المطلق، أي أنه غير قادر على الانفلات من الدائرة المغلقة؛ لأنه رفض الحلول العقلانية الراديكالية، ولذلك فحركته تظل حركة دائرية لا معني لها، من تراث مطلق ميت إلى طبيعة مطلقة ميتة، ولهذا السبب فالصهيوني الطبيعي المتمرد لا يختلف البتة عن الحاخام الأرثوذكسي حامل لواء التراث أو عن الجنرال المجنون مفسر اللاهوت اليهودي.

وقد تنبه الحاخام الصهيوني حاييم لانداو لهذه الحقيقة (والصهاينة المتدينون الروحانيون هم أقدر الناس على فهم بنية الفكر الصهيوني؛ لأنه لا توجد أيه غشاوات ليبرالية علمانية أو اشتراكية ثورية علي عيونهم)، فبينما يرى غوردون أن العمل اليدوي هو "سمة الشعب الطبيعي" وهو سبيل "الانبعاث القومي" و"الحياة الحقيقية" (٢٥٩) فإن الحاخام لانداو يرفض هذه الاصطلاحات البريئة ويقرر "أن العمل والتوراة هما شكلان لجوهر واحد... لا يمكن أن تولد التوراة من جديد بدون العمل وكذلك لا يمكن أن يولد العمل كقوة مبدعة في بناء الأمة من جديد بدون التوراة التي هي جوهر الانبعاث" (٣١٣)، ولذلك فالعمل هو الوسيلة نحو "الوجود (اليهودي)... المنفصل) (٣١١) أي أنه ليس سوى وسيلة للبقاء بعناد وإصرار داخل الدائرة.

(٩) : الانعتاق الذاتي عن طريق الاعتماد على الجوييم:

رفض الصهاينة التصور التقليدي لليهودي كشاهد سلبي على التاريخ ينتظر عودة المسيح المنتظر، وآمنوا بأنه يجب على اليهودي أن يتخل عن طفيليته وآن يلجأ إلى الفعل محاولًا الانعتاق عن طريق الجهود الذاتية، خاصة وأن الجوييم لا يمكن الاعتماد عليهم فهم أعداؤه المطلقون فيقول الحاخام المثالي (١٧٩٨- ١٨٧٨) وهو من رواد الفكر الصهيوني أن "الخلاص سيبدأ بجهود اليهود أنفسهم، يجب عليهم أن ينتظموا ويتحدوا ويختاروا القادة، ويغادروا أرض المنفى" (١٢)، ويحاول الحاخام كاليشر مزاوجة الرؤى المسيحانية الصوفية بالبرنامج السياسي فيؤكد أن "العمل الزراعي اليهودي سيؤدي للوصول إلى الخلاص المسيحاني النهائي "، ثم يفسر هذه العبارة بقوله: "إذا ما قدمنا الخلاص للأرض بهذه الطريقة الدنيوية، ستظهر لنا الخلاص تدريجيا"(١٧)؛ أي أن أمة الكهنة يمكنها الآن أن تتدخل شخصيًا ومباشرة في التاريخ (نيابة عن المسيح المنتظر) لتؤسس الدولة اليهودية، ولكن الصهاينة رغم كل إيمانهم بالانعتاق الذاتي لم يترددوا قط في المناورة مع بالفور لاستصدار وعد بالفور، كما أنهم لم يترددوا في الضغط علي هيئة الجوييم المتحدة لتصدر قرارًا بتقسيم فلسطين.

وكان آحاد هعام، بثاقب نظره، يخشى أن تتحول الدولة اليهودية إلى كرة تتلاعب بها الدول الكبرى، ويبدو أن الصهاينة دعاة الانعتاق الذاتي كانوا علي يقين من هذه الحقيقة وحاولوا استغلالها، فقرروا تحويل أرض الميعاد المقدسة إلى قاعدة عسكرية واقتصادية تخدم المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط أو أي قوة أخرى تبسط حمايتها على الدولة اليهودية، فحاييم وايزمان، الزعيم الصهيوني وأول رئيس لدولة إسرائيل، قد أعطى تأييده لفكرة الدولة اليهودية كقاعدة للانقضاض على الشرق الأوسط، فقد أخبر أحد كبار موظفي وزارة الخارجية أن "فلسطينا يهودية ستكون خير حماية لانجلترا، خاصة بالنسبة لمصالحها في قناة السويس(٢٤). وهو يقدم هذا العرض الجذاب حتى تساعده دول الإمبريالية في محاولته الانعتاق الذاتي! أما الزعيم الصهيوني الإرهابي الروسي الأصلي فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠– ١٩٤٠) فيقول مستخدمًا المصطلح الصوفي: "إن المصالح الإمبريالية البريطانية لن تكتسب أي شرعية إلا بشرط واحد أساسي: أن تتحول فلسطين إلى دولة غربية". إن احتياج انجلترا لعميل في الشرق، ولقاعدة

للانقضاض على الدول التي تحاول التحرر من النير الاستعماري ليشكل "أساسًا إلهيا لتحالف دائم بين انجلترا وفلسطين اليهودية (ويهودية فقط) "(٢٥). كان يعلم جابوتنسكي تمام العلم أن الدولة اليهودية بإنشائها على أرض عربية كان من المقدر لها أن تصبح دولة مطاردة منبوذة (مثل اليهودي في المنفى حسب تصور الصهاينة)، ولكن السمسار داخله يجعله يرى إمكانيات البيع والشراء وإمكانيات تحويل الدولة المنبوذة إلى وسيط وعميل لإحدى الدول الكبرى.

وهنا يحق للإنسان أن يتساءل: هل نجح الصهاينة حقًا في تحويل الشخصية اليهودية الطفيلية –على حد قولهم– إلى شخصية منتجة معتمدة على نفسها، وهل نجحوا حقًا في تأسيس الدولة اليهودية بجهودهم الذاتية، أم أنهم نجحوا في خلق دولة هامشية لا كيان حضاري أو اقتصادي سوي لها، معتمدين في ذلك على تأييد دول الجوييم الإمبريالية، التي لا تزال تبسط حمايتها الإلهية على أمة الكهنة التي تقع في صرة العالم ؟

(١٠) : معاداة السامية والعناية الإلهية:

إن نقطة البدء الفكرية لمعاداة السامية هي الافتراض القائل بأن اليهودي ليس له وجود فردي مستقل عن أمته، وأن اليهود كأمة يمثلون عنصرًا غريبًا عالميًا ليس له جذور محسوسة وليس له ولاء محدد، وأنهم لهذا السبب يمثلون خطرًا حضاريًا واقتصاديًا على أي جماعة إنسانية يعيشون فيها، ويوجد في الغرب تراث حضاري كامل تشكل معاداة السامية أساسه الفكري.

على الرغم من ذلك آمن المسكيليم أن معاداة السامية ظاهرة اجتماعية مؤقتة في طريقها إلى الزوال التدريجي كنتيجة طبيعية لسيادة العقل وانتشار الإخاء والمساواة. وقد آمن المسكيليم أيضًا بأن الجوهر الإنساني لليهودي لا يختلف عن جوهر أي إنسان، وبهذا يكون اندماجه في الجماعة الإنسانية شيئًا ممكنًا ومرغوبًا فيه.

ولكن هذا التصور العقلاني لشخصية اليهودي يتعارض وبشكل حاد مع تصور الصهاينة لليهودي على أنه شخصية مطلقة تقف خارج التاريخ، ولو دققنا النظر في الموقف الصهيوني من اليهود نجد أنه يتقابل إلى حد كبير مع موقف معادي السامية، فالصهيونية ترى اليهود على أنهم أمة واحدة رغم تشتتهم آلاف السنين في كل أصقاع الأرض، وأنه لا توجد أي فروق جوهرية بين اليهودي الأمريكي و"أخيه" الحبشي، أن الفكر الصهيوني يلغي فردية اليهودي ويجرده من إنسانيته المحسوسة، ويقسم العالم إلى الدائرة اليهودية المغلقة والجوييم، وهذا هو جوهر معاداة السامية.

واليهودي على حد قول بوبر شخصية "فريدة" لا يمكن فهمها ولا يمكن استيعابها، ولذا لا يمكن اندماجها مع بقية الأمم (٣٣٠)، والإيمان باستحالة الاندماج الكامل هو من المبادئ الرئيسية للصهيونية (٢٠٥) كما يقول كلاتزكين، بل إنه يُعد الاندماج "جريمة" و"خطيئة" و" عارًا" يحط من كرامة اليهود "الإنسانية الفردية" (٢١١). أما نحمن سيركين فيعبر عن شديد ثقته من أن البروليتاريا اليهودية ستقاوم "سم الاندماج" الذي تسرب إليها (٢٣٠)، ويعتقد فليسوف النكسة موسي هس أنه لا يمكن لليهودي أن يفر من تميزه وانتمائه للشعب المختار المضطهد. "يختبئ هؤلاء اليهود العصريون (المندمجون) من مسرح جريمتهم وراء مواقعهم الجغرافية أو وراء آرائهم الفلسفية عبثًا... قد تقنّع نفسك تحت ألف قناع وقد تغير

اسمك ودينك وطباعك وقد تسافر حول العالم متخفيًا وذلك لكي لا يكتشف الناس أنك يهودي، لكن أي إهانة موجهة للاسم اليهودي ستؤلمك، بحدة تفوق إيلامها الرجل المخلص ليهوديته والمدافع عن شرف الاسم اليهودي"(٢٥)، وحتى لو أراد اليهود الاندماج، فإن هذا الأمر –حسب التصور الصهيوني– مستحيل؛ لأن الجوييم يقفون بالمرصاد، "رعاعهم المتوحشون يقفون كالذئاب التي تبحث عن فريستها" (كما يقول سمولنسكين) (٤٧)، والشعب اليهودي ضحية عنف الجوييم يعيش "كقطيع أو كجماعة من العبيد... هدف كل سوط... قطيع يرفض الناس أن يدخلوه حتى إلى الإسطبل"(٣٤٦) على حد قول برنارد لازار (١٨٦٥ – ١٩٠٣) الكاتب الفرنسي الصهيوني.

وسبب هذه الظاهرة أن معاداة السامية لها وجود ميتافيزيقي ثابت أزلي. فيهودية اليهود "مثل ختم قايين على جباههم، إنها العلامة الأبدية التي كان ينفر منها غير اليهود والتي كانت سبب تعاسة لليهود أنفسهم" (٨٣)، أن موقف الجوييم من اليهود –حسب تصور بنسكر– يتسم بكره "أفلاطوني" زادت ألف سنة من حدته فأصبح معها مرضًا مستعصيًا، ويخلص بنسكر من هذا إلى أن اليهودية لم تنفصل عبر التاريخ عن معاداة السامية (٨٤) (التعميمات الهيجيلية التي تلغي التاريخ).

ووصف معاداة السامية بأنها مطلق "أفلاطوني" ومرض مستعصي، وهو وصف يلغي الوعي الإنساني الأخلاقي وينفي مقدرة الإنسان على التحكم في مصيره وفي بيئته وذاته، إن المرض الأخلاقي يتحول إلى مرض بيولوجي (كما تتحول الظاهرة التاريخية إلى مطلق أفلاطوني) بمعنى أن قوانين الطبيعة تنطبق على الأمور الإنسانية الأخلاقية (وهذا افتراض دارويني مسطح يذكرنا بكلمات أيخمان حينما أشار لبعض اليهود على أنهم "أفضل المواد البيولوجية"، كما أنه على المستوى الفلسفي فيه لمسه من وحدة الوجود التي تعادل بين الإنسان والأشياء والطبيعة)، نفس هذه القدرية والحتمية توجد في وصف وايزمان لمعاداة السامية بأنها مثل البكتيريا التي قد تكون ساكنة أحيانًا، ولكن حينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود للحياة، وهذه الرؤية المنحطة للنفس البشرية تفترض أن كل الجوييم مصابون بهذا النوع من البكتيريا الأخلاقية. ويخبرنا كروسمان الزعيم العمالي البريطاني الصهيوني بأن وايزمان أصبح صديقة الحميم حينما اعترف له كروسمان بأنه "بالطبع معاد للسامية" لو قال كروسمان غير هذا فإنه من وجهة نظر وايزمان القدرية "الكيمائية" يكون إما كاذبًا على نفسه أو على الآخرين (٢٦). ولأن معاداة

السامية ظاهرة لها ثبات المثل الأفلاطونية وسرمديتها تنتشر كالأوبئة (التي لا تتغير طبيعتها بمرور الزمن فالبكتيريا هي البكتيريا في كل زمان ومكان)، لا يميز الصهاينة بين معاداة السامية الدينية التي وجدت في بعض أجزاء أوربا في العصور الوسطى ومعاداة السامية العنصرية التي تستند إلى النظريات العنصرية الحديثة، بل إنها لتصف معاداة العرب للغزو الصهيوني بأنها معاداة للسامية، وكذا مكافحة الحكومة السوفيتية للاتجاهات البرجوازية الصهيونية بين صفوف اليهود السوفيت إذا كان ذات اليهود مطلقة، فعداوة الجوييم له، بغض النظر عن ظروفها التاريخية وأصولها الحضارية وأسبابها السياسية، لا بد أن تكون هي الأخرى مطلقة. والقصة التي يرويها الحاخام سولومن شختر في مطلع مقاله عن الصهيونية هي خير مثال على التصور الصهيوني اللاتاريخي لمعاداة السامية، وبطل القصة يهودي ألماني من الجيل القديم، جاءه أصدقاؤه في بداية ثمانينات القرن الماضي وسألوه عن رأيه في الهجمات الجديدة على اليهود، فأجاب بكل دهشة "إنها ليست بجديدة، إنها الهجمات القديمة نفسها"(٣٧٤).

وقد يصبح المفكر الصهيوني أكثر حنكة في موقفه من عالم الجوييم إلا أن رؤيته تظل أولًا وأخيرًا هي نفسها الرؤية القديمة المطلقة الحمل اليهودي بين ذئاب الجوييم (١٦٢). وتقسيم عالم الجوييم الذي توصل له المؤتمر الصهيوني الأخير إن هو إلا محاولة لإضفاء غلالة من العلمية والعلمانية على موقف هو في صميمه صوفي ولا تاريخي، فقد قسَّم المؤتمرون دول العالم من وجهة نظر أوضاع اليهود فيها إلى ثلاثة أنواع؛ أولًا: دول الاضطهاد والضيق (الاتحاد السوفيتي والدول العربية بطبيعة الحال)، ولا حل للمشكلة اليهودية في هذه البلدان إلا عن طريق الهجرة الفورية. ثانيًا: دول مثل دول أمريكا اللاتينية تقف على عتبة تغيرات اجتماعية ستؤدي في نهاية الأمر إلى خلق ظروف غير مؤاتية لليهود، وحل المشكلة يكون بإقناع اليهود بالهجرة. ثالثًا: دول العالم الحر التي لا يمكن إقناع اليهود بالهجرة منها (وهذا وضع يقبله بعض الصهاينة صاغرين، وإن كان بعضهم مثل بن غوريون يكافح ضده بكل صلابة). وحل مشكلة اليهود في هذه البلاد يكون عن طريق استمرار الكيان اليهودي فيها، ولا نعلم أن نجد بعض الصهاينة الذين يساوون بين هذه الدول الحرة ودول القسم الثاني بمعنى أنهم يرون أن دول القسم الأول تتهددها هي الأخرى الفاشية ومعاداة السامية، بل إن الصهيونيين

الاشتراكيين يروون أن الذئاب الإمبريالية تُعِد أفران الغاز ومعسكرات الاعتقال للحملان اليهودية الأمريكية!

ولكن سواء كانت المخاوف الصهيونية بخصوص اليهود السوفيت تأخذ طابعًا ليبراليًا، بينما تأخذ هذه المخاوف بالنسبة ليهود أمريكا طابعًا اشتراكيًا فإنه يجب أن نتذكر أن الوجدان الصهيوني الهيجلي يساوي في نهاية الأمر بين "تدمي" اليهود عن طريق معاداة السامية (في دول الضيق رأسمالية كانت أم اشتراكية) وإذابتهم عن طريق الانعتاق (في دول الانعتاق رأسمالية كانت أم اشتراكية أيضًا). فالتصفية والاندماج من وجهة النظر الصهيونية المجردة متعادلان إذ أنهما سيؤديان في نهاية الأمر إلى نفس الشيء: اختفاء الكيان اليهودي الفريد.

وتتضح هذه الفكرة في مقال الصحفي والزعيم العمالي الصهيوني بير كاتز نيلسون (١٨٨٧-١٩٤٤) المعنون "الثورة والتقاليد" حيث يقول: "ما دامت إسرائيل مشتتة وتعيش فريسة للاضطهاد والحقد والاحتكار وتغيير الدين قسرًا... وما دام بعضنا يمارس الانعتاق الذي يصلون إليه عن طريق اندماجهم كما في فرنسا الرأسمالية وروسيا الشيوعية، فإني لن أنسى ولا لن أستطيع أن أنسى يوم مصيرنا المخيف، يوم دمارنا" (٢٧٧) والدمار هنا يشير إلى افتراس اليهود على أيدي الجوييم وإلى اندماجهم إما بالطرق الليبرالية الفرنسية العفوية أو الطرق الشيوعية الموجهة، أي أن هيجيلية كاتز نيلسون وصلت إلى درجة جعلت كل التفاصيل التاريخية المختلفة ولا معنى لها ولا دلالة خاصة لأنها متشابهة، وتؤدي في نهاية الأمر إلى نفس الشيء (ويجب أن نضع هذه الهيجيلية الصهيونية في اعتبارنا كلما رأينا أية تصنيفات صهيونية).

ولكن التفكير الصهيوني يتسم بعلاقة حب وكره لليهودية، وبطبيعة الحال يتضح هذا في الموقف الصهيوني من اليهودي، فعلى الرغم من إصرار الصهيونية على عدم اندماج اليهودي لتميزه، نجد أن الصهيونية تنتقد الشخصية اليهودية مستخدمة اصطلاحات تراث معاداة السامية في الغرب، وهذا الموقف من اليهودية يتسق منطقيًا مع موقف الصهيونية من التراث اليهودي، فإن كان تراث اليهودية في المنفى منحطًا، فاليهودي هو خالق هذا التراث ونتاجه، وبالفعل فإننا نجد إشارات عديدة في الكتابات الصهيونية إلى شخصية اليهودي "المريضة" (كما يقول برنر)، بل إنه ليذهب أبعد من هذا ليقول " إن مهمتنا الآن هي في أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، وبكل نقائص شخصيتنا" (٢٠٠). فاليهود يودون

الحياة حتى "كالنمل أو الكلاب" (١٩٥) وفي رواية أخرى لنفس الكاتب "كالكلاب والمرابين" (١٩٦)، شعب لا يعرف أفراده "سوى الأنين والاختفاء حتى تهدأ العاصفة، يدير ظهره لإخوانه الفقراء، ويكدس دراهمه، ويتجول بين الجوييم ليؤمن معيشته بينهم، ثم يقضي نهاره يشكو من سوء معاملتهم له" (١٩٥).

إن نمو اليهودي شاذ غير طبيعي بسبب ملاحقته أمور الدنيا، ولأنه يحيا حياته في السوق متبعًا "قيم هذا المكان وحدها" (٢٥٩)، ويعقد "الصفقات التجارية التي تتم بمهارة "(٢٦٢).

إن اليهودي، كما يرى غوردون، "شخص غير طبيعي" ناقص، منقسم على نفسه (٢٦١)، ويهود الدياسبورا "شعب نصف ميت" مصاب بطاعون التجول (١٩٧) (على حد قول برنر)، أما كلاتزكين فيتحدث عن "شعب شوه جسده وروحه تشويها مرعبًا"(٢٠٨)، ويصف هس اليهودي بأنه إنسان "له أنف يهودية لا يمكن استصلاحها، وشعره أسود متموج لا يمكن تحويله إلى شعر أشقر أملس" (٢٣) (ولكنني أعرف يهودًا شقرًا في الولايات المتحدة لهم أنوف صغيرة بروتستانية مستقيمة، أنوف هي ولا شك نتاج مجتمع الجوييم الإمبريالي)، وفي مذكرات إسرائيل سنجر الكاتب البولندي الصهيوني نجد إشارات لليهود "المحدودبين" الذين يعيشون في القاذورات (٢٧). أما نورداو فقد وصف اليهودي بأنه مترهل العضلات .

والصورة التي يرسمها الصهاينة لليهودي على أنه شاذ وتاجر طفيلي هامشي لا جذور له، مشوه الجسد والروح، محدودب الظهر، مترهل العضلات، أنفه كبير مضحك، وشعره أسود مجعد، شبح ميت يسير بين الأحياء هذه الصورة تطابق الصورة التي يرسمها فلكلور معاداة السامية لليهودي. ويبدو أن نقد الصهاينة لليهود الدياسبورا ينطلق من الاتهامات العنصرية التي واجهوها هم اليهود في حياتهم اليومية. وقد لاحظ كاوفمان، المفكر اليهودي الذي رفض الصهيونية بعد انخراطه في سلكها بعض الوقت، لاحظ هذا التطابق بين موقف معاديي السامية والصهاينة من يهود الدياسبورا والذي ظهر واضحا في الكتب التي يدرسها التلاميذ اليهود في المدارس العربية في فلسطين فهي كتب "معادية للسامية"، تتضمن مثل هذه العبارات: "أن اليهود في المنفى يعيشون حياة غير صحية، حياة متسولين، قبيحة من الخارج وأحيانا من الداخل... أخلاقهم ناقصة... أن اليهود إن هم إلا شعب من التجار وأصحاب البنوك والسماسرة "، وقد رد أحد الصهاينة ويدعي يافنيلي

على اتهام كاوفمان قائلا: "نعم، إن اليهود بالفعل شعب طفيلي". وقد سمي بافنيلي نفسه صهيونيًا معاديًا للسامية، ثم أضاف قائلًا: "كيف يتسنى لأي صهيوني ألا يتخذ نفس الموقف".

إن معاداة السامية إذن شيء منطقي حتمي، بل إنها من وجهة نظر بافتيلي خير خالص لأنها ستساعد علي تحقيق هذا المطلق: هجرة اليهود من الدياسبورا وبذا ستنتهي حياة الشتات وتتحقق العودة: "إن الهسكلاه (بانتقادها الشخصية اليهودية) قد ضاعفت من حدة معاداة السامية بين الشعوب غير اليهودية. إذا كان الأمر كذلك، فمعاداة السامية إذن مرسلة من لدن إله إسرائيل، حيث أن الهسكلاه هي التي فتحت الباب لعملية البعث اليهودي"(٢٨).

وهكذا دخلت معاداة السامية نفسها الدائرة اليهودية ولفحتها لفحة من القداسة.

(١١) : العنــف:

كما بينا من قبل تمرد الصهاينة على سلبية التراث اليهودي وعلى عدم اكتراث اليهودي بما يحيق بهم من كوارث، ولذلك نادوا بأن يتمرد اليهودي على وضعه، وألا ينتظر وصول "المسيح المنتظر" الذي سيأتي بالخلاص، بل ينبغي أن يعمل هو -بكل ما لديه من وسائل- على العودة إلى أرض الميعاد عن طريق السلب والنهب والعنف العلمانيين ! ولهذا السبب حاول الصهاينة إحياء تقاليد العنف الجسدي بين اليهود لأن سنين النفي الطويلة كانت قد قضت عليه (أقول العنف الجسدي لأن العنف الفكري في التراث اليهودي لم يهن ولم يضعف طوال سنين النفي، بل أن الجتو زاد من ضراوته وحِدَته).

يقول ماكس نورداو أن اليهودي فقد كل عضلاته اليهودية خلال ثمانية عشر قرنا من النفي أصبح فيها اليهودي مترهل العضلات (وهذه هي إحدى أوصاف اليهود السائدة بين معاديي السامية)، ولذلك اقترح نورداو أن يقلع اليهودي عن قهر جسده وأن يعمل على تنمية قواه الجسدية وعضلاته أسوة "بذلك البطل باركوخيا" آخر تجسيد علي صعيد التاريخ العالمي لفلك اليهودية في صلابة عودها المقاتل وحبها لقعقعة السلاح "(٢٩).

وقد أعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودي مؤكدين جوانب العنف فيه، وصوروا الأمة اليهودية في نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنين الغزاة فبيرديشفسكي على سبيل المثال ينظر إلى الوراء إلى الأيام التي كانت فيها "رايات اليهود مرتفعة"، وينظر إلى "الأبطال المحاربين (اليهود) الأوائل" (١٨٢) كما أنه يكتشف أن ثمة تيارًا عسكريًا في التراث اليهودي، فالحاخام إليعازر قد بين أن "السيف والقوس هما زينة الإنسان" ولذا فمسموح أن يظهر الإنسان بهما يوم السبت (١٨٦). وأعطى الصهاينة دلالة خاصة لحادثة ماسادا، التي فضل فيها المحاربون اليهود الانتحار علي الاستسلام للغزاة (وحادثة ماسادا رمز الدائرة المنغلقة على نفسها، تسيطر على الوجدان الشعبي الإسرائيلي، ويتكرر ذكرها في الصحف والمجلات الإسرائيلية والصهيونية). هذه الرؤية للتاريخ تتضح في خطاب جابوتنسكي لبعض الطلاب اليهود في فيينا حيث أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف "لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكارًا ألمانيًا، بل إنه ملك لأجدادنا الأوائل... إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء".

(وتصور جابوتنسكي للسيف المرسل من السماء هو امتداد للتصور اليهودي القديم للنبي الغازي الذي أفرزته المقدسات القومية).
وقد تبع مناحم بيجين أستاذه جابوتنسكي في تأكيد أهمية العنف في التاريخ إذ يقول "إن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست السلام بل السيف"، ويبدو أن هذا الضرب من التقدم قد وصل ذروته في الدولة اليهودية لأن موشي ديان يرى إسرائيل مرتكزة على السيف" هذا هو قدر جيلنا، وخيار حياتنا، أن نكون مستعدين ومسلحين، أقوياء غلظاء، وإلا سوف يسقط السيف من قبضتنا، وحينئذ تنتزع حياتنا" (من الخطاب الذي ألقاه في جنازة لوي روتنبرج) (وليلاحظ القارئ قدرية ديان وبقية الصهاينة وهي قدرية متسقة منطقيًا مع عدم إيمانهم بمقدرة العقل على تشكيل الواقع).
ويبدو أن السيف، رمز الذكورة والقوة والعنف، كان محبوبًا وأثيرًا لدى الصهاينة وقد لاحظنا أن بيجين حول السيف إلى محرك للتاريخ (وهذه هي مهمة الله حسب التصور اليهودي القديم) أي أن السيف يكاد يكون هو المطلق أصل الكون وكل الظواهر، ولا يتردد برديشفسكي (الذي تأثر نيتشه بفكرة السوبرمان) من أن يصرح بما هو مستتر في كلمات بيجين، رفض برديشفسكي التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود وأخلاقيات العبيد، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر وأخلاق السادة على أخلاق العبيد، والسيف على الكتاب "الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة، هو الحياة في شيخوختها... السيف ليس شيئًا مجردًا يقف بعيدًا عن الحياة، إنه تجسيد للحياة في أعرض خطوطها وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حد كبير (١٨٥).
(ولكن التناقض الذي يتوهم بيرديشفسكي وجوده بين السيف اليهودي والكتاب اليهودي هو في الواقع مثل توهم بوبر وجود تناقض بين الطبيعة اليهودية والتاريخ اليهودي، فالطبيعة اليهودية مثل التاريخ اليهودي مطلق، والسيف مقدس مثل الكتاب فكلاهما كما بين جابوتنسكي وبعض الحكماء اليهود القدامى مرسل من السماء).
وحتى برانديز الليبرالي الأمريكي الهادئ يقتبس باستحسان شديد هذه الكلمات التي تصف العنف الصهيوني الذي كان لا يزال في نشأته. "غرست الصهيونية في الشباب اليهودي الشجاعة فألفوا الجمعيات وتدربوا على الأعمال الرياضية وعلى اللعب بالسيف وصارت الإهانة ترد بإهانة مثلها، وفي الوقت الحاضر يجد

أفضل لاعبي السيف الآلمان أن الطلبة الصهيونيين يستطيعون أن يدموا الخدود، كما يفعل التيوتونيون، وآن اليهود سوف يكونون أفضل لاعبي السيف في الجامعة (٣٩٢) (وفي الشرق الأوسط فيما بعد) . وبرانديز مثل كاتب هذه الكلمات يفكر في الطالب الآري (وحش نيتشه الأشقر) حينما يتحدث عن بطله اليهودي، وجابوتنسكي نفسه كان يفكر في السيف الألماني البروسي اللامع، ويبدو أن هذا السيف كان محط إعجاب كل الصهاينة الذي كثيرًا ما عبروا عن إعجابهم وانبهارهم بالعسكرية البروسية الرائعة (هذا بالطبع قبل أن يهوي هذا السيف البروسي المقيت على الرقابة اليهودية البريئة في أشوتيز)، وكتابات هرتزل مليئة بعبارات الإعجاب بهذا السيف كما أن ناحوم جولدمان قد تغنى بهذه الروح العسكرية البروسية في شبابه: "حيث أن ألمانيا تجسد مبدأ التقدم، نجدها واثقة من النصر، ألمانيا ستنتصر وستحكم الروح العسكرية العالم، ومن يريد أن يندم علي هذه الحقيقة ويعبر عن حزنه فله أن يفعل، ولكن محاولة إعاقة هذه الحقيقة هو شيء من قبيل العناد وجريمة ضد عبقرية التاريخ" (الذي تحركه السيوف وتقعقعه السلاح).

ورؤيتنا للتاريخ -كما بينت من قبل- هي في الواقع برنامجنا السياسي، وحيث أن الصهاينة أكدوا أهمية السيف والعنف كمحرك للتاريخ فإنه من المتوقع أن يكون العنف جزءًا أساسيًا من برنامجهم السياسي. والصهاينة كانوا منطقيين مع أنفسهم لأنه كي تتحول أسطورة "العودة" إلى حقيقة واقعة كان يلزم الحد الأقصى من العنف، فالتصور الأسطوري لفلسطين كبقعة من الأرض تنتظر عودة "ساكنيها الأصليين" ولليهود كشعب هائم طفيلي حزين يتذكر الأرض بِوَلَه، هذا التصور لم يكن من الممكن تحويله إلى واقع دون اللجوء للعنف ضد الفلسطينيين في أرض الميعاد وضد اليهود في المنفى. و"تفريغ" فلسطين من العرب فكرة وافق عليها كل المفكرين الصهيونيين سواء كانوا ليبراليين مثل هرتزل أم إرهابيين مثل جابوتنسكي، وقد سيطرت فكرة العنف منذ البداية على وجدان الحالوتسيم أو الرواد الأول الذين "اكتشفوا" فلسطين. فالرائد لم يكن فلاحا وحسب بل كان أيضًا الشومير الحارس الذي يدافع عن الأرض التي سرقها. وحيث أن الإرهاب كان سلاحا أساسيًا ومباشرًا "لتحرير الأرض" من السكان الأصليين؛ كان من الضروري تأسيس منظمات لها طابع مزدوج زراعي عسكري، حتى تترجم الرؤية الصهيونية نفسها إلى واقع.

والعقلية التي تسيطر على إسرائيل هي عقلية العنف، فهي عقلية تؤمن بأن "قوة الردع المسلحة" والتكنولوجيا الإسرائيلية هما وحدهما القادران على التحدث للعرب(٣٣)، والعنصرية الإسرائيلية الموجهة ضد عرب فلسطين هي ترجمة يومية لهذا العنف الذي يمارسه الشعب الإسرائيلي ككل في حياته اليومية وأعتقد أن الإفاضة في هذا الموضوع سيكون حديثًا معادًا لأن العالم كله الآن على بينة من حقيقة العنف الإسرائيلي، إلى فضل أن مناقشة الممارسة الإسرائيلية اليومية تقع خارج نطاق الدراسة) .

بل إن العنف يمتد ليشمل يهود الدياسبورا الذين يحتقرهم الصهاينة أيما احتقار لرضاهم بوضعهم التاريخي (بالمعني المألوف للكلمة وليس بالمعنى الصهيوني).

ويأخذ هذا العنف أشكالًا عدة؛ فهناك الإرهاب الفكري ضد كل من يرفع صوته ضد الصهيونية كفكر، وهناك أيضًا محاولة تقديم الصهيونية على أنها التعبير الحقيقي والوحيدة عن اليهودية.

ولكن الأمر يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، ففي أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود اكتشف الصهاينة أن ثمة تناقضًا عميقًا بين مصالح الصهيونية كحركة تحاول إنشاء الدولة اليهودية وبين النزعات الإنسانية التي تسعى لإنقاذ اليهود كبشر وليس كتجمع قومي. وقد عبر بن جوريون عن هذه الحقيقة في رسالة بعث بها إلى اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٧ ديسمبر ١٩٣٨ حيث قال "أنه إذا طغت الشفقة على نفوس اليهود واتجهت كل طاقاتهم نحو إنقاذ اليهود من مختلف البلدان، لن يؤدي ذلك إلا إلى تلاشي نفوذ الصهيونية... إذا سمحنا لمشكلة اللاجئين اليهود بأن تنفصل عن هدف إقامة الدولة اليهودية نكون قد عرَّضنا وجود الصهيونية نفسه للزوال (٣٤) أي أنه كان على الصهيونية الاختيار بين الإنسان اليهودي والمثال الصهيوني وهي لم تتردد في اختبار الأخير (ولهذا لم يقم الصهاينة بأي مجهود لمساعدة اليهود بل ركزوا كل جهودهم على تشجيع الهجرة إلى أرض الميعاد).

والصهيونية في اختيارها كشفت عن ولائها للأفكار والمثاليات غير التاريخية وهذا هو سر إعجاب أيخمان بالصهيونية، فهو على حد قوله كان مثاليًا والمثالي ليس هو الإنسان الذي يؤمن بفكرته وحسب، بل هو الرجل الذي يعيش من أجل فكرته ولذلك فهو على استعداد للتضحية بكل شيء بل وبالجميع من أجل فكرته (٣٥) هذه المثالية هي التي جعلته يكره اليهود الأرثوذكس (الذين يقبلون واقع الجتو المتخلف دون تساؤل) كما كان يكره اليهود المندمجين (الذين يحاولون

تحسين أوضاعهم عن طريق قبول واقعهم التاريخي الجديد) ولعله مما يجدر ذكره هنا أن العدو الرسمي للدولة النازية لم يكن الصهاينة وإنما جماعة يهودية يدل اسمها على اتجاهها الإصلاحي" الجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية". كان الهدف الأساسي لهذه الجماعة هو محاربة معاداة السامية وبالتالي الدولة النازية، أما الصهاينة فلم يكن هدفهم محاربة معاداة السامية من قريب أو بعيد (لأنهم يرفضون وجود اليهود بين الجوييم أساسًا)، وإنما كان الهدف الصهيوني هو ترحيل أكبر عدد ممكن من اليهود لتحقيق المثل القومية –الأمر الذي يتفق تمامًا مع الأهداف النازية-.

كان ايخمان إذن يفضل التعاون مع الصهاينة لمثاليتهم وقوميتهم (٣٧) (وكم كان شديد الإعجاب بهذا الطراز الجديد من اليهود) وحينما تولى مسؤولية الإشراف على اليهود أوصاه رئيسه بقراءة إنجيل الصهيونية كتاب هرتزل الدولة اليهودية وفور انتهائه من قراءة الكتاب أصبح أيخمان -على حد قوله- صهيونيًا يطالب بوضع "شيء من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود "(٣٨) شيء من الأرض الراسخة بلا شعب لشعب بلا شيء من الأرض الراسخة. ("وقد بلغ إعجاب ايخمان بهرتزل أنه عبَّر عن استيائه الشديد من الذين دنسوا مقبرته وشوهوها") (٣٩) .

ولم يكن ايخمان صهيونيًا فكريًا وحسب (مثل بعض الصهاينة الأمريكيين المترفين)، بل كان صهيونيًا حقيقيًا وفعالًا على استعداد للعمل من أجل تحويل العودة إلى حقيقة وواقع وقد دعاه بعض الصهاينة لزيارة الكيبوتزات في فلسطين محاولين بذلك كسبه لصفهم، وبالفعل وصل إلى حيفا ولكن السلطات الإنجليزية رحلته على الفور (٤٠) وقد ساعد ايخمان الصهاينة على تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود، بل إنه طرد مرة مجموعة من الراهبات من ديرهن حتى يزود بعض الشباب اليهود بمزرعة تدريبية (٤١) كما أن ايخمان عقد صفقة مع واحد من أكثر اليهود مثالية -رودولف كاستنر- الصهيوني المجري بموجب هذه الصفقة وافق ايخمان على السماح بترحيل بضعة آلاف من اليهود إلى فلسطين بصفة غير قانونية (يهود "من أفضل المواد البيولوجية " حسب تعبيره –مواد ظهر فيما بعد أنها صهيونية-) في مقابل أن تتم عملية شحن يهود المجر في نظام إلى ألمانيا، وفي مقابل أن يسود الهدوء معسكرات الاعتقال (٤٢) (وثمة نظرية تقول أنه كان من المستحيل على النازي شحن هذه الآلاف المؤلفة من اليهود دون تعاون

القيادات اليهودية نفسها)، لكل هذه الأسباب لم يتردد ايخمان في أن يسمي نفسه "صهيونيًا" أثناء محاكمته في تل أبيب.

ويأخذ العنف الصهيوني ضد يهود الدياسبورا أحيانا شكل العدوان المباشر، فقد أثبتت التحقيقات أن حوادث الإرهاب ضد يهود العراق عام ١٩٥١ (والتي تسببت في تشتيت أقدم جماعة يهودية في العالم) قام بها دعاة الصهيونية بينهم: لقد كانت قنابل الصهاينة تقعقع في بغداد لحمل اليهود على الهرب إلى فلسطين، بينما كانت رشاشاتهم ترهب عرب فلسطين للهرب منها، وذلك حتى تكتمل دائرة وحدة الوجود اليهودية ويعود شعب التوراة لأرض التوراة ليعيشون متمركزين حول التوراة وفيها.

ولا تزال الصهيونية واعية بالتناقض بين مصالحها ومصالح يهود الدياسبورا، فحينما حاول أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي المساهمة في "حل مشكلة" اليهود السوفيت وفي "التخفيف" عنهم بفتح باب الهجرة أمامهم، لم يؤيد الصهاينة مساعيه، ولم يقدر لمشروعة الحياة، ولا أدري إن كان عضو الكونجرس هذا ساذجًا لدرجة البلاهة، أم ماكرًا إلى أبعد الحدود؟ هل كان بالفعل يريد "إنقاذ" اليهود السوفيت أم إحراج الصهاينة"؟

ولكن العنف بالنسبة للصهاينة ليس وسيلة فحسب، بل هو غاية في حد ذاته فاليهودي كانسان –حسب التصور الصهيوني- يحتاج لممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية، كان بن هخت الكاتب اليهودي يشعر بعيدًا في قرارة نفسه في كل مرة يقتل فيها جندي بريطاني، لأنه ولا شك كان يتحرر من مخاوفه ويولد من جديد تمامًا مثل شارلوت كورداي في قصيدة جابوتنسكي المعنونة "شارلوت المسكينة" فشارلوت تتلخص من رتابة حياتها وسخافتها وتروي تعطشها للعمل البطولي بأن تقوم "بالفعل" تسدد الضربة إلى جان مارا فترديه قتيلًا وهو في الحمام(٤٣) العنف هنا يصبح مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أحد أفرادها سن الرجولة (فاليهودي حينما يقوم بهذا الفعل الذي كان يخاف منه أجداده ذبح أحد أفراد الجوييم، يتخلص من مخاوفه ويصبح جديرًا بحمل رمز الذكورة) وهذا الجانب من الفكر الصهيوني يتضح بجلاء في كتاب الثورة الذي كتبه مناحم بيجين زعيم حزب جحال الإسرائيلي، يقول فيلسوف العنف:

"أنا أحارب؛ إذًا أنا موجود"

"من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال، نموذج غير معروف البتة للعالم في الألف وثمانية سنة الماضية: اليهودي المحارب أولًا قبل كل شيء، يجب أن نقوم بالهجوم: نهاجم القتلة.

"بالدم والعرق سينشأ جيل متكبر كريم قوي"(٤٤).

وهذا الحديث الرومانسي يشكل الأساس الفلسفي لتفكير بعض قادة إسرائيل من الليبراليين والاشتراكيين، الذين يؤمنون بأن الحرب مع العرب ليست وسيلة لضم الأرض والتخلص من الفلسطينيين وحسب، بل هي أيضًا الطريقة الوحيدة لتأسيس الحضارة الإسرائيلية ولتحرير اليهودي من الخوف ولإعادة صياغته ليصبح ذلك الطرزان اليهودي الجديد، المواطن الإسرائيلي، الحاخام الفلاح المحارب... نتاج لا عقلاني لنقطة بدء لا عقلانية.

وفي ختام هذا الجزء لا بد وأن نشير إلي أن مجموعة من الصهاينة مثل آحاد هعام ويهودا ماجنس ومارتن بوبر قد عارضوا العنف الصهيوني ونادوا بالأخوة العربية اليهودية وبالدولة مزدوجة القومية، ورغم صدق نوايا بعض هؤلاء المفكرين (والنوايا شيء يحكم عليه الله وحده) إلا أن ثمة تناقض أساسي في فكرهم، فهم لم يتنبهوا عن وعي أو عن غير وعي إلى أن البنية الأسطورية للفكر الصهيوني الذي يؤمنون بها كأفراد إن هي إلا زخارف وليس لها أي فعالية حقيقية كما أنها تتناقض بشكل جوهري مع بنية أفكارهم ذاتها.

ويهودا ماجنس أول رئيس للجامعة العبرية هو أصدق مثل على هذا النوع من الصهاينة طيبي القلب، فماجنس يؤكد أنه بالنسبة لليهود "لا يمكن للغاية مهما سمت أن تبرر الواسطة الدنيئة" (٣٢٣) ولذا فهو مطمئن إلى أن اليهود لن تسمح لهم أنفسهم بغزو أرض الميعاد على طريقة يوشع بن نون الذي فتح كنعان (وأباد سكانها)، والذي ثبت الوجود اليهودي عن طريق "السيف" (٣٢٥)، وماجنس كان من المؤمنين أنه "لا يمكن تأسيس الوطن اليهودي... بكبت الطموح السياسي للعرب... لأن مثل هذا الوطن سيؤسس على رؤوس الحراب لمدة طويلة (٣٢٤)، ولذلك فقد اقترح التغلب على الصعاب التي تواجه الصهاينة بواسطة جميع الأسلحة التي وضعتها الحضارة تحت تصرفهم –باستثناء الحراب– مثل الأسلحة الروحية والثقافية والاجتماعية والمالية والاقتصادية والطبية... والأخوة والصداقة "(٣٢٥) ويستحسن الابتعاد عن النابالم واستخدام عربات الصليب الأحمر لخديعة الكنعانيين على طريقة يوشع بن نون...

ولكن ماجنس –مثل آحاد هعام– لم يحل التناقض الأساسي الذي يواجهه طيبو القلب من الصهاينة، إن لم يمكن أن تتم "العودة" عن طريق الوسائل الأخلاقية الحديثة وذلك بسبب عناد "السكان الأصليين" غير اليهود، فما العمل ؟ الإجابة منطقية وواضحة وحتمية فبنية الأفكار الصهيونية الأسطورية تنطوي على الحد الأقصى من العنف لتجاهلها كل تفاصيل الواقع المحسوسة، وإن رفض ماجنس هذا العنف بشكل فردي فهو يكون مثله في هذا مثل الفيلسوف الألماني نيتشه طيب القلب هو الآخر الذي لم يكن يتحمل رؤية الدم وعلى الرغم من ذلك فإن فكره يُشكِّل الأساس الفلسفي للفكر الفاشي في العصر الحديث، وهو الفكر الذي في نهاية الأمر أقام أفران الغاز التي لو قدر له هو نفسه رؤيتها لوقع مغشيًا عليه.

وقد قام ماجنس بتأسيس حزب أو جماعة "أحود" (التي انضم لها مارتن بوبر) وذلك للدفاع عن حقوق العرب في فلسطين لتوطيد أواصر الصداقة بينهم وبين اليهود ولنشر فكرة الدولة ذات القوميتين ولكن لم تكلل مساعيه بالنجاح، تمامًا مثلما فشل آحاد هعام من قبله ومارتن بوبر من بعده في إيقاف العنف الصهيوني، آحاد هعام الذي تأثر بنيتشه وهاجر إلى أرض الميعاد وفزع من رؤية المذابح التي يقوم بها الصهاينة ضد العرب، ومارتن بوبر المفكر النيتشوي النزعة الذي كان يدعو للأخوة العربية اليهودية، ولكنه في الوقت ذاته يتحدث عن أمة الروح والحق المقدس في أرض الميعاد ويقطن في بيت عربي اضطر أصحابه للرحيل عنه تحت ضغط الإرهاب الصهيوني!.

(١٢) : الصهيونية والنازية:

وصف ايخمان نفسه بأنه "صهيونيًا" وهو كان صادقًا إلى درجة ربما لم تطرأ له هو نفسه على بال، فتلاقي الصهيونية بالنازية ليس تلاقي سلوك وحسب بل هو تلاق فكري تمتد جذوره إلى أصولهما الفكرية وإلى بنية رؤيتهما للواقع (بنية وحدة الوجود).

فالصهيونية تصدر عن تصور أسطوري للواقع، إذ أن راديكاليتها (مثل علمانيتها) راديكالية لا عقلانية فاشية، تمامًا مثل راديكالية النازية التي بنت برنامجها السياسي على مجموعة من الأساطير العرقية وشبه التاريخية البراقة (تشبه إلى حد مثير للدهشة الأساطير اليهودية) وجندت وراءها الجماهير الجرمانية وقادتها إلى حتفها، ونحن نسمي هذه الحركات السياسية بالراديكالية نسبة إلى الكلمة اللاتينية "رادكس"RADIX والتي تعني "جذر" وكلا الصهيونية والنازية تقدمان حلولًا "جذرية" شاملة للمشاكل التي يواجهانها. ولكن هذه الحلول فاشية لأن جوهرها الأسطورى زائف غير حقيقي لا يستند إلى تحليل موضوعي للواقع الاجتماعي أو التاريخي ولذا فهي تتطلب من التابع والمريد تقبلًا لا عقلانيًا وعاطفيًا لمعطيات لا وجود لها إلا في مخيلة أحد الحالمين من إنصاف الأنبياء والكهنة.

وقد أثرت النظريات العرقية المختلفة –خاصة الحركة الجرمانية الجامعة أو الشاملة Pan-germanic على الفكر الصهيوني والنازي (والحركات القومية الجامعة حينما تأخذ شكلًا متطرفًا لا تاريخيًا تطابق في نيتها فكرة وحدة الوجود)، وقد لخص هانز كوهن منطلق الحركة الجرمانية الشاملة في هذه الكلمات "تقوم هذه الحركة على الفكرة القائلة بأن جميع الأشخاص المنحدرين من العرق الألماني أو تربطهم قرابة الدم والأصل الألماني حيثما وجدوا إلى أي دولة ينتمون، يكنون ولاءهم الأول لألمانيا، ويجب أن يصبحوا مواطنين في الدولة الألمانية، وطنهم الحقيقي.

قد يكونوا نشأوا وترعرعوا، هم وآباؤهم وأجدادهم، تحت سماوات أجنبية وفي بيئات غريبة، ولكن حقيقتهم الأساسية بقيت ألمانية".

وأثر هذا المفهوم على الفكرة الصهيونية القائلة بوحدة الشعب الوجودي الصوفية غني عن البيان؛ فاليهودي يبقي يهوديًا في كل زمان ومكان ولاؤه يتجه بالدرجة الأولى للدولة اليهودية.

والاهتمام الزائد والمتطرف بالدولة (تجسيد الفكرة المطلقة وروح الشعب) هي فكرة هيجيلية في أصلها وسيطرت على الوجدانين الصهيوني والنازي، بل وسيطرت على الوجدان الصهيوني أكثر من سيطرتها على الوجدان النازي لعدم وجود أي واقع محسوس يتعامل معه الصهاينة.

والصهيونية مثل النازية تعمق في تابعها كره الغير. وقد لاحظ الدكتور أسعد رزوق التشابه بين هذا الجانب في الفكر الصهيوني وفكر الفيلسوف السياسي الألماني كارل شميث (مؤلف كتاب الرومانتيكية السياسية "الواسع الانتشار في الأوساط النازية والفاشية"، ففي كتابه مفهوم السياسة بين عند شميث أن كل "تضاد ديني وأخلاقي واقتصادي وعرقي أو غيره يتحول إلى تضاد سياسي، متى كان قويًا لدرجة تكفي لتجميع الناس بصورة فعالة حول قطبي العدو والصديق".

أي أن التمييز بين العدو والصديق هو أساس صالح لتقييم أي ظاهرة سياسية والصهيونية التي تدور حول فكرة معاداة السامية وكراهية الجوييم لليهود، تنظر للظواهر بنفس المنظار الضيق، وهي بهذا تشارك النازية في إحدى سماتها (ربما دون تأثر بنفس المصدر الفكر، لأن فكرة معاداة اليهود للجوييم قديمة قدم التراث اليهودي ذاته).

وقد طبق الصهاينة والنازيون آراء داروين في التطور الطبيعي على التطور التاريخي والاجتماعي، فكلاهما يؤمن بأن الظواهر الإنسانية في بساطة الظواهر الطبيعية (وهذا يفسر حتمية الفكر الصهيوني) كما أن كلاهما يؤمن بأن المجتمع لا يحكمه سوى قانون واحد طبيعي لا أخلاقي)، قانون "البقاء للأصلح" ولذا يصبح العنف وسيلة مشروعة بل ومنطقية حتمية وتصبح العنصرية نمطًا وأساسًا "علميًا" للحياة.

ومما هو معروف أن داروين نفسه لم يفكر في بوم من الأيام أن يوفق بين نظريته والدين المسيحي، وظل طيلة حياته محافظًا متدينًا يواظب على الذهاب إلى الكنيسة، بعد أن يقضي أسبوعه في دراساته المختلفة أما الصهاينة القادرون على الإتيان بكل العجائب فقد حاولوا أن يزاوجوا الداروينية واليهودية، ففسر بعض مفكريهم التيه في الصحراء على أنه التطبيع الرباني لنظرية الاختيار الطبيعي، وبذلك يكون التيه ليس عقابًا لليهود على ضلالهم وفسادهم الأخلاقي وإنما هو محاولة من جانب الله للقضاء على الضعيف فيهم حتى لا يدخل أرض كنعان سوى الأصحاء

والسوبرمن (وهنا نجد أسطورة دينية قديمة أخرى ليس لها أي دلالة أخلاقية مثل أسطورة الاصطفاء والميثاق تصبح تصورًا داروينيًا في منتهى السهولة).

والتصورات المسيحانية وفكرة الاختيار حينما ترتدي رداء علمانيًا فإنها تكتسب طابعًا داروينيًا فاشيًا. فبن جوريون يتحدث عن الرؤية المسيحانية على أنها حقيقة تاريخية ووجود اجتماعي يستطيع اليهود وحدهم تحقيقهما. وهو يستنتج من ذلك تفوق اليهود الأخلاقي والفكري ويشير إلى مقدرتهم على أن يكونوا مثلا يحتذى للجنس البشرى كله(٤٧).

والحديث عن مقدرة الأمة اليهودية على البقاء على الرغم من الاضطهاد الذي لحق بها عبر التاريخ والذي فسر قديمًا على أنه بقاء الأمة المختارة الصوفي يفسر في العصر الحديث على أنه البقاء للأصلح (وليس "للأقدس" كما كان الحال في الماضي). كما أن تبرير الصهاينة للوجود الإسرائيلي داخل الأراضي العربية على أساس التفوق التكنولوجي وحده، وليس على أساس أخلاقي هذا التبرير ينبع هو الآخر من تفكير دارويني اجتماعي فاشي.

والفكر الصهيوني –مثل الفكر النازي– تعود جذوره إلى الفكر الرومانتيكي عامة والألمانية على وجه الخصوص:

١ - وقد بيَّنا من قبل أن الصهيونية تلغي العقل وتقدس العاطفة وهي في هذا تشبه الفكر الرومانتيكي المتطرف والنازية.

٢ - وكلا الفلسفتين النازية والصهيونية تؤمن بوحدة الوجود وبأنه من الخير للإنسان ذي الوعي التاريخي الفردي أن يندمج بمطلق.

٣ - والتيار النبوي واضح في الفكر النازي وضوحه في الفكر الصهيوني، فالنبي مثل السوبرمان كلاهما يجسد مطلقًا. وصورة النبي العسكري (بن جوريون والفوهرر) تسيطر على الوجدان اليهودي سيطرتها على الوجدان النازي.

٤ - كما أن استقطابات الفكر النبوي الذي يتسم بالحرية المفرطة والحتمية المطلقة تضم كلا الفكرين، فالنبي بتجسيده لكلمة الرب ينتمي إلى عالم المطلق الذي لا تحده حدود أو سدود، ولكنه بانتمائه لهذا العالم يفقد المقدرة على الاختيار الإنساني كما أنه لا يملك إلا أن يجسد كلمة الرب أو الفكرة المطلقة، إذ أنه يصبح مجرد أداة في يد المطلق (وهذا الاستقطاب هو أحد سمات الفكر البرجوازي عامة الذي يدور حول أسطورة العودة للطبيعة والإنسان الطبيعي)(٤٨).

٥ - كما أن الجدل المثالي الهيجلي هو مصدر أساسي للفكر الصهيوني والنازي وللطبقة التي يبرر بها مفكرو كلتا الحركتين برنامجها السياسي.

٦ - وقد تأثر الصهاينة، مثل النازيين، بكتابات نيتشه وفخته وبآرائهما المثالية في القومية والإرادة المطلقة.

ولنيتشه بالذات تأثير كبير على عديد من المفكرين الصهاينة؛ مثل: آحاد هعام ومارتن بوبر وبرديشفسكي، كما أن التشابه بين فكره والفكر الصهيوني مثير حقًا للدهشة:

١ - فالنيتشوية مثل الصهيونية، هي ديانة علمانية أو لاهوت دون إله.

٢ - كما أن النيتشوية مثل الصهيونية داروينية تسبغ نوعًا من الروحية والقداسة على قانون التطور.

٣ - ومعاداة الفكر واحتقاره وتقديس الفعل يشكلان تيارًا أساسيًا في فكر نيتشه وفي الصهيونية وقد أشرنا من قبل إلى مدى احتقار الصهيونية ليهود الدياسبورا المشتغلين بالأعمال "الفكرية"، إن أخلاق يهود الدياسبورا هي أخلاق العبيد أما أخلاق الصهاينة فهي ولا شك أخلاق السادة.

٤ - واذا كان نيتشه قد دعا الانسان لأن يعيش في خطر وفي حالة حرب وأن يبني بيته بجوار البركان، فإن الصهيونية أيديولوجية الريادة المسلحة قد حققت هذه الحياة النيتشوية للمهاجر اليهودي ثم المواطن الإسرائيلي.

٥ - والفكر النيتشي مثل الفكر الصهيوني، تسرى فيه نزعة قوية من البانثيزم وحدة الوجود، إن حدود الأشياء ومعالمها في الكتابات الصهيونية وفي فكر نيتشه تختفي ليحل محلها ضباب اللاتحدد والمطلق.

٦ - وتفكير نيتشه تفكير نبوي نخبوي إذ أنه يرى أن حركة التطور الحقيقية لا بد وأن تؤدى إلى ظهور السوبرمان وإلى ظهور أمة مختارة من هذا النوع من الرجال، وما الإنسان العادي سوى الحلقة أو الكوبري الموصل لهذه المرحلة العليا (التي يوجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها إلى أن نصل إلى الحد الأقصى "الصهيونية" غير المعروف). ويسيطر على الصهيونية أيضًا تفكير نخبوي يحول حياة جماهير اليهود في الدياسبورا إلى مجرد كوبري يؤدي إلى ظهور السوبرمان اليهودي والدولة اليهودية، والتفكير النخبوي بطبيعة الحال تفكير نبوي، فالسوبرمان هو الإنسان الذي يصل إلى الحقيقة دون عناء والذي يحيا حياة فاضلة (مسيحانية). وقد سيطر التفكير النبوي على نيتشه إلى درجة أنه وقَّع إحدى خطاباته

بكلمة "المصلوب" وهي صفة كثيرًا ما يستخدمها المفكرون للإشارة للشعب اليهودي وللإفراد اليهود.

٧ - ونيتشه في كتاباته يتحدث دائمًا عن الماضي والمستقبل ولا يركز عيونه على الحاضر أبدًا (والماضي والمستقبل دون الحاضر الحي يتحولان إلى ثابتين مجردين) والصهاينة لا يتحدثون عادة إلا عن الماضي والمستقبل البعيدين وإن نظروا إلى الحاضر فإنهم ينظرون إليه في ضوء اهتمامهم بالماضي والمستقبل. وإذا بدأ أي مفكر أو سياسي مثل افنيري أو جولدمان أو دفنون في الاهتمام بالحاضر كواقع تاريخي محسوس فإن الصهاينة يتهمونه في التو بالسلبية والتخاذل.

٨ - ودائرية الفكر الصهيوني تشبه في كثير من الوجوه الفكرة النيتشوية بخصوص العود الأبدي، يقول نيتشية على لسان زرادشت:

"سأعود مع هذه الشمس، وهذه الأرض وهذا النسر، وهذا الثعبان، لا إلى حياة جديدة أو حياة أفضل، أو حياة تقرب من هذه. سأعود أبدًا إلى نفس هذه الحياة، في كل صغيرة وكبيرة منها، لكي أدعو مرة أخرى إلى العود الأبدي لكل الأشياء(٤٩)، وهذا هو التوازن الآلي الذي ينجم عن تحدد الهدف وثباته والدوران حول المطلق.

٩ - ونيتشه بتفكيره النبوي المطلق لا يتحدث عن السعادة الفردية وعن السعادة عامة فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد أما السوبرمان فيعلو على الخير والشر وتجاهل السعادة كقيمة إنسانية هو أيضًا أحد سمات الفكر الصهيوني، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المثالية المسيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار وبالتالي فهم ينسون الفرد اليهودي المحسوس نفسه.

إن الوجه الصهيوني مثل الوجه النيتشوي الفاشي لا تظهر عليه أية إشراقات إنسانية ولا تعلوه أي ابتسامة، إنه وجه غاضب وميت في الوقت ذاته، مركزة عيونه على الأزلية، والقارئ لكتابات المفكرين الصهيونيين يحس بالاختناق الشديد لأنه لا تلفحه أية نسمات إنسانية. حينما وصف ايخمان نفسه بأنه صهيوني هل طرأ له على بال هذا التطابق شبه التام بين الصهيونية والنازية؟.

الهوامش والمراجع

الفصل الأول

ظهور وفشل الهسكلاه (حركة الاستنارة اليهودية)

١ - لطفي العابد وموسى عنز (ترجمة). إشراف الدكتور أنيس صايغ، تعريف الدكتور أسعد رزوق: الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية (بيروت: منظمة

التحرير الفلسطينية. مركز الأبحاث١٩٧٠) لتقليل عدد الهوامش نشير إلى أرقام الصفحات في النص نفسه. أحب أن أشير هنا إلى أنني اضطررت في بعض الأحيان إلى تغيير الترجمة حتى تتفق مع الأصل وإلى تعديل طفيف أحيانا أخرى حتى تتفق لغويا مع سياق الدراسة. والأصل الذي ترجمت منه هذه النصوص هو كتاب آرثر هرتزبرج الفكرة الصهيونية تحليل تاريخي ومختارات (نيويورك: هربر أندرو١٩٥٩) في مجال التعريف بالمفكرين الصهيونيين محل الدراسة واستعنت بهرتزيرج وبتراجم الدكتور رزوق وقد قمت أحيانا بوضع خط تحت بعض الكلمات لتأكيدها، ولكن حين يكون التأكيد موجودا في النص الأصلي فإنني قمت بالإشارة إلى ذلك.

٢ - من مصادر هذا الفصل كتاب هاليرن: فكرة الدولة اليهودية (كامبريدج. ماساتشوستس هارفارد يونفرستى برس ١٩٦١) ٣ -٩٠.

٣ - ايزودور اينشتاين. اليهودية: تقديم تاريخي (بالتيمور. بنجوين بوكس ١٩٥٩) ٢٨٧ - ٢٨٨ وكذلك سولومون جرايزيل: تاريخ اليهود من النفي البابلي إلى الوقت الحاضر ٥٧٢٨ – ١٩٦٨ (نيويورك، نيو أميريكان لايبرارى١٩٦٨) ٤٦٨ -٤٧١.

٤ - وإسماعيل راجي الفاروقي. الملل المعاصرة في الدين اليهودي(القاهرة. معهد البحوث والدراسات العربية١٩٦٨) ٥٥.

٥ - نفس الصفحة.

٦ - نفس المرجع ص٦٠.

٧ - تاريخ اليهود ص ٥٠٥.

٨ - اليهودية : تقديم تاريخي. ٢٩١ – ٢٩٧.

٩ - الملل المعاصرة ٥٣ .

١٠ - تاريخ اليهود ٥٤٣.

١١ - الملل المعصرة ٥٩.

١٢ - أسعد رزوق . الدولة والدين في إسرائيل (بيروت . منظمة التحرير الفلسطينيه . مركز الأبحاث ١٩٦٨) ٢٣.

١٣ - معظم هذه التواريخ منقول عن دائرة المعارف الأمريكية.

١٤ - الملل المعصرة. ٧٧.

١٥ - آرثر هرتزبرج. اليهودية.

١٦ - الملل المعاصرة.

١٧ - نفس المرجع ص٩٥.
١٨ - نفس المرجع ص ٩٧.
١٩ - نفس المرجع ص ٩٧.
٢٠ - نفس المرجع ٩٤.
٢١ - مزشى مينوحين: تدهور اليهودية في العصر الحديث (بيروت . معهد الدراسات الفلسطينية١٩٦٩) ص ٣١.

الفصل الثاني

الصهيونية وهزيمة العقل اليهودي

١ - أسعد رزوق. إسرائيل الكبرى. دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني. (بيروت - . منظمة التحرير الفلسطينية– مركز الأبحاث . ١٩٦٨) ٥٤٧– ٥٤٨.
٢ - والتر لاكبر (محرر) قراءات في الصراع العربي الإسرائيلي. تاريخ وثائقي لصراع الشرق الأوسط (نيويورك، فهانتايم بوكس ١٩٦٩) ١٢٥.
٣ - إسماعيل راجي الفاروقي، أصول الصهيونية في الدين اليهودي (القاهرة . معهد البحوث والدراسات العربية ٦٣/ ١٩٦٤) ص ١٠٠.
٤ - نفس المرجع ١٤– ١٧. وانظر أيضًا: اليهودية.
٥ - فيرجيليوس فرم. دائرة معارف الدين (نيويورك. فيلوسوفيكال لا يبرارى ١٩٤٥ المقال الخاص بالمسيح ٤٨٥.
٦ - أصول الصهيونية ص ٤.
٧ - مارفن هالفرسون. مرشد إلى اللاهوت المسيحي (نيويورك: ميريديان بركش ١٩٦٠) ١٧٣– ١٧٦.
٨ - دائرة معارف الدين. المقال المعنون "التقدم" ٦١٢– ٦١٤.
٩ - اليهودية ص١٠.
١٠ - فكرة الدولة اليهودية، ص ٦٦– ٧٦.
١١ - نفس المرجع ٩٨ وتاريخ اليهود ٥٢١– ٥٢٣.
١٢ - قراءات في الصراع العربي الإسرائيلي.
١٣ - حنا ارنت، ايخمان في أورشاليم: تقرير عن تفاهة الشر(نيويورك، ذي فايكينج برس ١٩٦٤) ٥٩
١٤ - نفس الصفحة.
١٥ - قراءات ١١ – ١٢.

١٦ - نفس المرجع ٧٧ ــ ٧٩.
١٧ - المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين ١٩٦٨. الجزء الثاني (القاهرة. مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالأهرام ١٩٧١) ٩٨١.
١٨ - هآرتس ١٩٧٢/١/٣١ .
١٩ - نيويورك تايمز ١١ يونيو ١٩٦٧ في إسرائيل الكبرى ٦٠٣.
٢٠ - يوري إيفانوف. ترجمة ماهر عسل. الصهيونية حذار. دراسة سوفيتية في تاريخ وتنظيم الحركة الصهيونية (القاهرة . دار الكتاب العربي ١٩٦٩) ص ٧ .
٢١ - أسعد رزوق. التلمود والصهيونية (بيروت منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث . ١٩٧١) ٢٥٦ ــ ٢٥٨ .
٢٢ - هاعلوم هذه ١٩٦٩/١/٧ .
٢٣ - أدلى ديان بتصريحه في أغسطس ١٩٦٧ ونشر في النهار ١٩٦٨/٥/٢٨. إسرائيل الكبرى. ص ٦٠٤.
٢٤ - ألفريد ليلنتال. ثمن إسرائيل (شيكاغو: هنري رجنري كومباني ١٩٥٣) ص ٢٢.
٢٥ - بن هرمان. "الصهيونية والأسد. من كتاب الصهيونية وإسرائيل والعرب تحرير هال دريير (بركلي كاليفورنيا. اندبندنت سوشيا ليست بوكس ١٩٦٧ (ص ٣١).
٢٦ - رولاند بوتشي. " الجيتو الأخير. وجهة نظر ليبرالية في الصهيونية وإسرائيل". محاضرة ألقيت في ندوة فلسطين الدولية في القاهرة ٣٠ مارس ــ ٥ أبريل ١٩٦٥ .
٢٧ - مايكل سيلرز. تحول الدولة الصهيونية إلى دولة آرية (نيويورك :بلاك ستاربوك. ١٩٦ ص ٣٥ .
٢٨ - مايكل سيلرز. "يهودية الصهيونية". مجلة أشوز. يونيو ١٩٦٨. ص ١٢ ــ ٢٢ .
٢٩ - إسرائيل الكبرى ١٣٣ ــ ١٣٤ .
٣٠ - لطفي العابد. العنف والسلام في إسرائيل. دراسة في الاستراتيجية الصهيونية (بيروت. منظمة التحرير الفلسطينية. مركز الأبحاث ١٩٦٧) .
٣١ - بربارة حداد "فلادبمير جابو تنسكي". شؤون فلسطينية، ١٩٧١ . ٧٩ ــ ٩١ .

٣٢ - اقتبسها ميرون ميدزيني في "عرض لسيرة حياة ناحوم جولدمان الذاتية. ستون سنة من الحياة اليهودية. الجيروزاليم بوست، ١٧ ابريل ١٩٧٠.
٣٣ - يوري أفنيري "حرب بين أخوة ساميين" من الفكر الصهيوني المعاصر. (بيروت. منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث ١٩٦٨) ص ٣٥١.
٣٤ - ليلى سليم القاضي، المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية. (بيروت منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث ١٩٧١) ص ٥٥.
٣٥ - ايخمان في أورشاليم . ٤٢ .
٣٦ - نفس المرجع ص ٢٩ .
٣٧ - نفس المرجع ص ٥٧ .
٣٨ - نفس المرجع ص ٤١ .
٣٩ - نفس الصفحة
٤٠ - نفس المرجع . ٦٢ .
٤١ - نفس المرجع . ٦٠ – ٦١ .
٤٢ - نفس المرجع . ص٤٢ .
٤٣ - إسرائيل الكبرى . ٤٧٢ .
٤٤ - تدهور اليهودية .١٠٠ .
٤٥ - إسرائيل الكبرى ص ٨١ .
٤٦ - نفس المرجع ص ٩٧ .
٤٧ - الفكرة الصهيونية ص ٩٤ .
٤٨ - عبد الوهاب المسيري." الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة " الطليعة (فبراير ١٩٧١) ص ٦٢– ٦٩ .
٤٩ - فؤاد زكريا . نيتشه (القاهرة . ١٩٥٦) ص ١٣٩ .
الذاتي عن طريق الاعتماد على الجوييم: